الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٥٢٦٦٦٧ / ٥٦٢٦٦٩

العدد ٣٦٧ — الثلاثاء ١٣ من صفر سنة ١٣٦٣ — ٨ من فبراير سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــدد



زعماء الإصلاح الإسلامي في القرن التاسع عشر

٤ — جمال الدين الأفغاني

حادثان هامان حدثا في السنين الثلاث التي كان فيها « السيد » في باريس ، أحدهما اتصاله بالفيلسوف الشهير « رينان » وإعجاب كل منهما بالآخر ودخولهما معاً في معركة — وإن لم تكن حامية — حول الإسلام والعرب ؛ وقد فتحت صدرها لهذه المعركة جريدة « الدبيا » الفرنسية الشهيرة .

فقد ألقى الأستاذ « رينان » في السربون محاضرة دارت حول نقط ثلاث : (١) خطأ المؤرخين في قولهم علوم العرب وفنون العرب وتمدن العرب وفلسفة العرب مع أن هذه الأشياء نتاج الأمم غير العربية أكثر منه نتاجاً للأمة العربية ، فالتمدن أكثره من نتاج الفرس والفلسفة أكثرها من نتاج النصارى النسطوريين والوثنيين الحرانيين . والفلاسفة الذين ظهروا في دولة الإسلام كالكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد لم يكن منهم من العرب إلا الكندي ؛ فنسبة الحضارة والمدنية والعلم والفلسفة إلى العرب خطأ ، وعدم دقة في التعبير . (٢) أن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر ، بل هو عائق لها ، بما فيه من اعتقاد في الغيبيات وخوارق العادات والإيمان التام بالقضاء والقدر . ومن اشتغل بالفلسفة من المسلمين اضطهد أو أحرقت كتبه أو كان في حماية خليفة أو أمير ، مؤمن في الظاهر غير متدين في الباطن ، ومع ذلك فما وصل إليه هؤلاء في الفلسفة ليس له قيمة كبيرة فهو ليس إلا فلسفة اليونان مشوهة ، والفلسفة التي أخذناها عن المسلمين في أسبانيا كانت فلسفة رديئة الترجمة ، مشوهة الأصل لم نستفد منها الفائدة الحقة إلا بعد ترجمتها ترجمة جديدة من منابعها الأصلية . ومع هذا يقول : « إن في دين الإسلام تعاليم ومبادئ عالية القيمة رفيعة المقام ، وما دخلت في حياتي مسجداً من مساجد المسلمين إلا شعرت

بجاذبية نحو الإسلام بل وتأسفت أن لا أكون مسلماً .. ولكنه حجب العقل عن التأمل في حقائق الأشياء .... وعقول أهل البلاد الإسلامية قاصرة ، وما يتميز به المسلم هو بغضه للعلوم واعتقاده أن البحث كفر ، وقلة عقل لا فائدة فيه . (٣) أن العنصر العربي بطبيعته أبعد العقول عن الفلسفة والنظر فيها ؛ فالزمن الذي كان يسود فيه العنصر العربي – وهو عهد الخلفاء الراشدين – لم تكن فيه فلسفة ، ولم يظهر البحث العلمي ولا الفلسفة إلا حين انتصرت الفرس ونصروا العباسيين على الأمويين وسلموهم زمام الملك ، ونقلوا الخلافة إلى العراق مهد التمدن الفارسي القديم .

وختم محاضرته بالإشادة بقيمة العلم ودعوة الأمم كلها شرقية وغربية إلى الهجوم عليه « فالعلم روح كل هيئة اجتماعية وبه تتقدم الأمم وبه يتحقق العدل وبه يستخدم العقل القوة ... وهو لا يساعد إلا على التقدم المؤسس على حرمة الإنسان وحريته » .

نشرت هذه المحاضرة في جريدة « الديبا » فأثارت خواطر المسلمين والمستشرقين والباحثين في شؤون المسلمين .

وكان ممن رد عليه الأستاذ « مسمر » رئيس البعثة المصرية بفرنسا إذ ذاك ، وفي رده كاد يسلم بالمسألة الأولى وهي أن المدنية العربية ليست مدنية العرب وحدهم بل مدنية الأمم المختلفة التي دخلت في الإسلام ، وفي المسألة الثانية قال إنه ليس في دين الإسلام وتعاليمه ما يمنع المسلمين من التقدم العلمي ، وقد تقدم المسلمون في عصور مختلفة ولم يمنعهم دينهم من أن يتفوقوا على المسيحيين في بعض تاريخهم ، وكل سائح الآن يسيح في البلاد الإسلامية يشعر بنهضة الشرق وأخذه بأساليب التقدم والإصلاح من غير أن يصدهم دينهم عن ذلك . ثم قال : « ومن الغريب أنه قبل أن يلقي المسيو رينان خطبته بيومين ألقى بعض العلماء العظام أمام المحفل نفسه محاضرة اشتملت على مكتشفات العرب في علم الحياة – وقد نشرت هذه المحاضرة في المجلة العلمية – ... وهي محاضرة ترشدنا إلى حقيقة التمدن الإسلامي في القرون المتوسطة ، فلو اطلع المسيو رينان عليها وعلى ما كتبه « سديو » و « دوزي » في مؤلفاتهما عن العلوم والآداب والفنون والصنائع المنسوبة إلى العرب ، وعرف ما تحملته هذه الأمة في العلم مما لا يحصى عدده بينما كانت أوروبا منغمسة في التوحش والجهالة ما نسب إلى العرب ما نسب ، وهذا العلم تقدم بمعونة الدين لا رغماً عن الدين . وإذا كان الإسلام سمح للساطرة والمجوس واليهود في دولته بهذا التقدم العلمي الذي ذكره مسيو رينان فماذا لا يكون سبباً في حمل ملايين المسلمين على الأخذ بأسباب العلم – وأما المسألة الثالثة فلم يعرها مسيو مسمر كبير اهتمام في الرد .

وقد تحمس الشباب المسلم في باريز لمقال رينان ورد مسيو [illegible] فاجتمعوا وكلفوا أحدهم حسن عاصم « حسن باشا عاصم فيما بعد » تعريب المحاضرة والرد عليه فعربهما وقال في [illegible] الذب عن الدين فرضاً على الإنسان ، وحب الوطن من الإيمان ، اجتمع جم غفير من طلبة العلم المصريين المقيمين بفرنسا وكلفوا أحقرهم العبد الفقير « حسن عاصم » بتعريب الخطبة التي ألقاها رنان ... طعناً في دين الإسلام والأمة العربية وبتعريب ما كتبه الفيلسوف الكبير صاحب الفكر الصائب المسيو مسمر ... والغرض أن نقف على الطعن والرد كل من كان على دين الإسلام أو من الأمة العربية ، ويمكنهم تفنيد كلام المسيو رينان فيفعلون إظهاراً للحق » ؛ كما عرب محمد مختار أحد طلبة العلوم الطبية بباريس المحاضرة التي أشار إليها مسيو مسمر .

بعد بضعة أسابيع من نشر محاضرة رينان رد الأستاذ جمال الدين عليه في « الديبا » أيضاً ، ولكن كان رده حادثاً في بعض نقطه ، فلعله لذلك لم يعجب حسن عاصم ولا إخوانه ، ولذلك لم يهتموا بترجمته إلى العربية أو نشره ، فقد مدح رينان على بحثه وإنصافه وقال إنه استفاد من محاضرته استفادة كبيرة ، ثم قال : « إن المحاضرة

تشتمل على نقطتين أساسيتين : (١) أن المدنية الإسلامية كانت — بما لها من نشأة خاصة — تناهض العلم ؛ (٢) أن الأمة العربية غير صالحة بطبيعتها لا للعلوم ما وراء الطبيعة ولا للفلسفة .

« فأما عن النقطة الأولى فإن المرء ليتساءل ، بعد أن يقرأ المحاضرة عن آخرها ، أمصدر هذا الشر عن المدنية الإسلامية نفسها أم كان منشؤه الصورة التي انتشرت بها المدنية الإسلامية في العالم ، أم أن أخلاق الشعوب التي اعتنقت الإسلام أو حملت على اعتناقه بالقوة ، وعاداتها وملكاتها الطبيعية هي جميعاً مصدر ذلك ؟ لا ريب أن قصر الوقت المخصص لمسيو رينان قد حال دون إجلائه هذه النقطة .

ثم أخذ يبين أن ما وقع للمسلمين وقع مثله في الأديان الأخرى ، « فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية المتعاقبون لم يلقوا أسلحتهم بعد كما أعلم ، وهم ما يزالون على محاربة ما يسمونه بالتدليس والضلال (يعني العلم والفلسفة) »(١) .

قال : « وأما النقطة الثانية فإنه ليكفي بيان أن المجتمع العربي خرج من حال الهمجية التي كان عليها وأخذ يسير في طريق التقدم الذهني والعلمي ويجد السير بسرعة لا تعادلها إلا سرعة فتوحاته السياسية ، وقد تمكن في خلال قرن من التكيف بالعلوم اليونانية والفارسية . . . فتقدمت العلوم تقدماً مدهشاً بين العرب وفي كل البلدان التي خضعت لسيادتهم ، وقد كانت روما وبيزنطة المدينتين الرئيسيتين لعلوم اللاهوت والفلسفة ، بل مبعث أنوار المعارف الإنسانية كلها . . . ثم جاء الوقت الذي وقف فيه علماء هاتين المدينتين عن البحث ، وتهدمت فيه مدنيتهم التي أقاموها للعلم ودرجت كتبهم القيمة في طي النسيان ، وقد كان العرب في ذلك الجهل حين شرعوا يتناولون ما تركته الأمم المتمدنة ، فأحيوا تلك العلوم المندثرة ورقوها وخلعوا عليها بهجة لم تكن لها من قبل ، أو ليس هذا دلالة بل برهاناً على حبهم الطبيعي للعلوم ؟

صحيح أن العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم كما أخذوا عن الفرس ما اشتهروا به . بيد أن هذه العلوم التي أخذوها بحق الفتح قد رقوها ووسعوا نطاقها وصححوها ، ونسقوها تنسيقاً منطقياً ، وبلغوا بها مرتبة من الكمال تدل على سلامة الذوق وتنطوي على التثبت والدقة النادرين . وقد كان الفرنسيون والإنجليز والألمان لا يبعدون عن رومة وبيزنطة بُعْد العرب عنهما ، وكان من السهل عليهم أن يستغلوا كنوز علوم تلك المدينتين ، ولكنهم لم يفعلوا حتى جاء اليوم الذي ظهر فيه منار المدنية العربية على قمة جبال البرانس يرسل ضوءه وبهاءه على الغرب ، فأحسن الأوروبيون إذ ذاك استقبال أرسطو بعد أن تقمص الصورة العربية ، ولم يكونوا يفكرون فيه وهو في ثوبه اليوناني على مقربة منهم . أو ليس هذا برهاناً آخر ناصعاً على مزايا العرب الذهنية وحبهم الطبيعي للعلوم ؟

« وبينما يسلم مسيو رينان بأن البلدان الإسلامية في [illegible] من سنة ٧٧٥ م إلى أواسط القرن الثالث عشر تحوي علماء ومفكرين عظاماً ، وأن العالم الإسلامي إذ ذاك كان يفوق العالم المسيحي في الثقافة الذهنية — إذ يقول إن أكثر الفلاسفة الذين شهدتهم القرون الأولى للإسلام كانوا كتابعي السياسيين من أصل حراني ، أو أندلسي ، أو فارسي ، أو من نصارى الشام . ولست أريد أن أغمط علماء الفرس صفاتهم الباهرة ولا أن أغض الطرف عن الدور الجليل الذي لعبوه في العالم الإسلامي ، ولكني أرجو أن يسمح لي أن ألاحظ أن الحرانيين كانوا عرباً ، وأن العرب لما احتلوا أسبانيا لم يفقدوا جنسيتهم بل ظلوا عرباً ، وأن اللغة العربية كانت إلى ما قبل الإسلام بعدة قرون لغة الحرانيين ، وكونهم قد حافظوا على ديانتهم القديمة وهي « الصابئة » ليس معناه أنهم لم ينتموا إلى الجنسية العربية ، وقد كانت أكثرية نصارى الشام عرباً غسانيين اهتدوا بهدى النصرانية . أما ابن باجة ، وابن رشد ، وابن طفيل فلا يمكن القول بأنهم أقل عربية من الكندي بدعوى أنهم لم يولدوا في

(١) وقد وقع في رده على هذه النقطة بعض خطأ سنعرض له بعد .

جرثومة العرب ، وخصوصا إذا اعتبرنا أن لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها .

«ثم ماذا يكون لو قصرنا نظرنا على الأصل الذى ينتمى إليه العظيم ولم نأبه للنفوذ الذى سيطر عليه ، والتشجيع الذى لقيه من الأمة التى عاش فيها ؟ لو فعلنا ذلك قلنا إن نابليون لا ينتمى إلى فرنسا ، ولما صح لألمانيا أو انجلترا أن تدعى كلتاهما الحق فى العلماء الذين استوطنوها بعد أن رحل أصولهم إليها من بلدان أخرى» .

ثم تعرض لأسباب انطفاء هذه الشعلة ، وختم رده بقوله : «إن العقل لا يوافق الجماهير ، وتعاليمه لا يفقهها إلا نخبة من المتنورين ، والعلم على ما به من جمال لا يرضى الإنسانية كل الإرضاء ، وهى التى تتعطش إلى مثل أعلى ، وتحب التحليق فى الآفاق المظلمة السحيقة التى لا قبل للفلاسفة والعلماء برؤيتها أو ارتيادها» .

رد عليه الأستاذ رينان وبادله مدحا بمدح ، وإعجابا بإعجاب ، وقال : «تعرفت بالشيخ جمال الدين منذ شهرين فوقع فى نفسى منه ما لم يقع إلا من القليلين ، وأثر فى تأثيرا قويا وقد جرى بيننا حديث [illegible] الية على أن تكون علاقة العلم بالإسلام هى موضوع محاضرتى فى السوربون ... والشيخ جمال الدين نفسه خير دليل يمكن أن أسوقه على تلك النظرية العظيمة التى طالما أعلنتها ، وهى أن قيمة الأديان بقيمة من يعتنقها من الأجناس ، وقد خيل إلى من حرية فكره ، ونبالة شيمه ، وصراحته — وأنا أتحدث إليه — أنى أرى أحد معارفى من القدماء ، وجها لوجه ، وأنى أشهد ابن سينا ، أو ابن رشد ، أو واحدا من أولئك الملحدين العظام الذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الإنسانية من الإسار» .

ثم قال : «ولست أرى فى البحث النفيس الذى عالجه الشيخ إلا نقطة يصح أن نختلف فيها حقيقة ... فلسنا بالتأكيد ننكر ما لروما على تاريخ الإنسانية من نفوذ ، ولا ما كان للعرب من نفوذ ، ولكن هذه التيارات الإنسانية العظيمة فى حاجة إلى تحليل ؛ إذ ليس كل ما كتب باللاتينية ترى تاج شهرة روما ، ولا كل ما كتب باليونانية من عمل اليونانيين ، ولا كل ما كتب بالعربية نتاج عربى ، ولا كل ما نشأ فى بلد مسيحى من تأثير المسيحية ، ولا كل ما ظهر فى البلدان الإسلامية من ثمار الإسلام ...

«لقد خالنى الشيخ غير منصف فى أنى لم أوف الكلام حقه ، ولم أقل فى المسيحية ما قلته فى الإسلام ، وأن الاضطهاد بين المسيحية لا يقل عما كان بين المسلمين ، وهـذا قول حق ؛ فجاليليو لم يلق من الكاثوليك خيرا مما لقيه ابن رشد من المسلمين ... وإذا كنت لم أطل القول فى هذه الحقيقة فلأن آرائى فى هـذا الشأن معروفة لا حاجة بى إلى تكريرها على مسمع محفل علم بكل أعمالى وآرائى ... ولست أريد من المسيحى ترك عقيدته المسيحية ولا من المسلم ترك الإسلام ؛ ولكنى أريد من المسيحيين والمسلمين المتنورين أن يهتموا بالعلم اهتماماً لا تعوقه العقيدة ، وقد تم مثل [illegible] بعض البلدان المسيحية ونرجو أن يتم مثله فى الإسلام . وإن يوما يتم ذلك فيه لما أرحب به أنا والشيخ [illegible] معاً» .

[illegible] رأيه الذى قاله فى المحاضرة ، ثم ختم مقاله بقوله : «ويلوح لى أن الشيخ جمال الدين قد زودنى بطائفة من الآراء الهامة تعيننى على نظريتى الأساسية وهى أن الإسلام فى النصف الأول من وجوده لم يحل دون استقرار الحركة العلمية فى الأراضى الإسلامية ، ولكنه فى النصف الثانى خنق الحركة العلمية وهى فى حظيرته فكان هذا من سوء حظه»[1] .

وهـذه النتيجة الأخيرة — من غير شك — فيها كثير من التعديل لآراء رينان السابقة ، وهى تؤدى حتما إلى أن ذلك ليس من طبيعة الإسلام ، ولو كان من طبيعته ما شجع الحركة العلمية فى أوله ولا آخره .

وإلى هنا أسدل الستار من هذه الرواية التى سيعاد تمثيلها — على وجه أشد — بين مسيو هانوتو والشيخ محمد عبده . وما أقوى الردود ! ولكن أقوى منها رد المسلمين عليها

(١) لخصنا هذه المقتبسات — من ترجمة حسن باشا عاصم وترجمة رد السيد جمال الدين ورد رينان — من نسخة أعارنا إياها صديقنا الأستاذ مصطفى عبد الرازق باشا مشكوراً .

في حفلة شاي

للدكتور أحمد زكي بك

طرقتُ باب الدار ، أو بالأحرى دققتُ الجرس عند بابها ، فلم ألبث أن انفتح الباب لي عن غلام جمع بين ثلاثة ألوان : السواد في وجهه ويديه ، والبياض في عمامته وقفطانه ، ثم حمرة في حزامه وحذائه ، فكان منظراً زاد في جماله وسامةُ هذا الوجه ، ثم ابتسامةٌ كشفت عن لؤلؤ أسنان تنفَسُها عليه الأوانس الحسان . ابتسم الخادم الغلام تحيةً ، ولكنه ابتسم لا شك أكثر لما أحدث مرأى هذا الزيّ في نفسي ، أو ما توقع أنه يُحدثه ؛ لا سيما تلك العمامة وذاك الحذاء الأحمر يلبسهما الصبيّ قبل أن يبلغ الحُلُم .

ومدّ إليّ يديه يطلب طربوشي و « البالطو » ، وكان لا بد مستترة يفكّر في حاله هو ، فلم يفطن إلى أني حضرت متجهزاً ، فلم أحمل على رأسي غطاء ، ولا على بدني كساء . وعندها اختفت ابتسامته خجلاً . فوضعت يدي خفيفةً على أم رأسه ، أو أم رأس عمامته ، وهززتُها ملاطفاً كأنما أقول له لا بأس عليك مما كان .

ودخلتُ بهو الدار فاستقبلني ربُّها ، واستقبلتني ربتها . وكانت الدار حافلة ، فاعتذرت عن تأخري ، واعتذرتْ زوجتي . وأخذنا نطوّف بمن نعرف في الحاضرين . وكانت وجوهها معروفة . فما لبثتُ أن اتخذتُ في زاوية البهو زمرةً يجري فيها الحديث متدفقاً . ونظرتُ ، فوجدتها وجوهاً مألوفة ، بينها وجه صديق لا يفتأ ينصب الفخاخ . فناداني بما فيه قهقهة الجمع ، فقلت « شر في الجوالق » . قال قد حكمناك . قلت أحكم بعد السلام . وأعطاني السلامَ الزمن

بقبولهم مكانة عليا في العلم والفلسفة

* * *

وأما الحادثة الثانية فسياسية ، ذلك أن بعض ساسة الإنجليز ، وقد أحسوا حملة جريدة العروة الوثقى وتهييجها الرأي العام على إنجلترا ، رأوا أن يتفاهموا مع القائمين عليها فمشوا إلى السيد جمال الدين في ذلك ، فأرسل مندوبه الشيخ محمد عبده وقال : « رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبده (المحرر الأول لهذه الجريدة) إلى لندرة إجابة لدعوة من نرجو منهم الخير لملتنا ومن نؤمل فيهم حسن النية (إشارة إلى مستر بلنت) ...

قابل محرر الجريدة كثيراً من رجال السياسة الإنجليزية وحادثهم محادثات طويلة في المسألة المصرية ، ومن هذه المحادثات ما نشر إذ ذاك في الجرائد الإنجليزية ، واكتفى السيد جمال الدين في العدد الرابع عشر من العروة الوثقى بذكر محادثة كانت بين الشيخ محمد عبده ووزير الحربية الإنجليزية لورد « هرتنكتن » خلاصتها أن وزير الحربية سأل الشيخ محمد [illegible] المصريون أن يكونوا في أمن وراحة تحت سلطة الإنجليز وهي خير من سلطة الأتراك ومن جاء على أثرهم ، خصوصاً وأن الجهالة عامة في أقطار مصر وأن كافتهم لا يفرق بين حاكم أجنبي وحاكم مصري .

ورد الشيخ محمد عبده بما خلاصته أن في المصريين من يحبون أوطانهم حب الشعب الإنجليزي لبلاده ، وأرض مصر من زمن محمد علي انتشرت فيها العلوم والمعارف ، وأخذ كل منها نصيبا على قدره ، ولا تخلو قرية مصرية من قارئين وكاتبين يقرءون الجرائد العربية ويوصلون ما فيها إلى من لم يقرأ ، والنفرة من ولاية الأجنبي من طبيعة البشر فضلا عما لتعاليم الإسلام في هذا الشأن[1] .

وقد أخذت الجريدة هذا الحديث وسيلة للتهييج وإثارة الشعور ، وعلى كل حال فلم تأت هذه الأحاديث بنتيجة من التفاهم ، واستمرت الجريدة في خطتها حتى حجبت كما أسلفنا .

أحمد أمين

(١) تجد بسط ذلك في الجزء الأول من تاريخ الإمام .

الذي أريده لأتحسس الأرض التي أطؤها . واختصصتُ بالكلام سيدةً عرفتها . فقال صاحبي متجمّلا : قد حكّمناك . وابتسمت سيدة أخرى وصديق ثان ، فعرفت أنها ابتسامة لها ما وراءها .

قلت : ففيم حكّمتني ؟

قال : قبل أن تحكم قل لنا أيهما أكثر عندك ، الصدق أم الكذب .

فنظرت في عيني صاحبي أستشف فيهما ما أريد ، فلم أجد إلا لمعان عين ناصحة ، حجب ضياؤها ما وراءها ، فكأنه ظلمة الليل الكثيف . ومن الضياء ما يُعشي . فجمعت قوتي وقلت في غير تردد : إني لا أكذب أبداً .

قال صاحبي : إذن فقل لنا ما ترى في هذا الفستان الجديد الجميل فستان السيدة فلانة .

وكانت السيدة التي اختصصتها بالحديث مطاولة .

وكان سبق أن ملأتُ عيني من الثياب « الجيرْ » ... قليل الطول على امرأة تنصف زاد ... قاعدتها ، وكان الجيرُ في ستر عند القاعدة أو ... ووجدته قصيراً أيضاً عند العنق ، وهو عنق كانت الطبيعة سخية عند خلقه فزادت فيه شبراً كان الجيرُ في خدع الأبصار عنه بحجب بعضه . وإجمالا كان ثيابا لا يأتلف ولا يتسق ، ولو أنهما أفردا ، لحمد البصرُ هذا وحده ، وهذه وحدها .

ولم يكن بدٌّ من جواب صاحبي . ولم يكن بدٌّ من أن يكون الجواب سريعاً ولا يُعدّ الأبطاء ترددا في الرأي ، ويُعدّ التردد في الرأي في أمر سيدة نقصا في شهامته ، فجمعت قوتي مرة أخرى وقلت :

— فستان جميل جدا ، لا أحد أجمل منه إلا من ملأته .

ونظرتُ إلى صاحبي الخبيث أتشفى .

فقال : يعجبني أن تقول إن الفستان جميل ، ولكن لا يعجبني أن تقول إن السيدة الرشيقة « ملأته » .

وكان من ستر الله أن السيدة بدأت تجيبني ، فلم تملأ أذنها مما قال صديق .

قالت : إنك تكذب يا مرزي ، فأنت كسائر الرجال يكذبون إذا أحرجوا في أمر النساء ، أو في أمر غيره . إن هذا الفستان أبغض ما عندي ولكنه ما ترضيه « الموضة » الجارية .

فقلت : مع احتفاظي برأيي في جمال هذا الفستان ، أسألك هل ترين غضاضة في كذبة لا يكون منها إلا إدخال السرور إلى القلوب ؟ وهل ترين حقا أن الرجال وحدهم يمتازون على النساء في القدرة على إدخال هذا السرور إلى القلوب ؟

قالت السيدة الأخرى ، وقد لحت في بعض الدهشة من تطور الأمور : الواقع أننا كنا نتحدث في الصدق والأمانة ، وكم عند الرجال منها وكم عند النساء ، وكان هذا السؤال الذي ألقى عليك امتحانا .

قال صاحبي متبسما : ... يا صديق بجوابك هذا ... في ... الصدق وقلة الأمانة عند هؤلاء ، وهؤلاء . ... هذا أنك ترى هذا الفستان الجميل غير جميل .

قال : لا ، أبدا . الفستان والله جميل جدا يا سيدتي .

قالت السيدة : رأيك في الصدق والأمانة والله جميل كذلك .

وضحكنا . ثم صارت المحاباة مكاشفة ، وجرى الحديث تبسطا . وأخذنا نستعرض في صراحة كم عند الناس من صدق ، وكم عندهم من أمانة .

قلت : الحق إن الصدق في الأمر الخطير فضيلة ، ولكنه قد يكون في أمور أخرى رذيلة . خذ مثلا — جاءني بالأمس القريب خادم قديم زائرا . وجاء من الريف ، فحمل إليّ من الحمائم ما خال أني أسرّ به وأغتبط . فكان لا بد من شكره ، وفي الشكر لا بد من كلمة طيبة عن هديته ، ووصفها بما ليس فيها . فهل

يكون الصدق هنا إلا تحببا للرجل وتقربا ، وهل يكون فيه إلا جزاء الإحسان بالإساءة . على أن هناك مواقف كثيرة تواضع الناس على الكذب فيها ، أو هم تواضعوا على أن لا يحفلوا بالصدق أو الكذب فيها . خذ مثلا — صديقا يناديني على عجل « كيف الحال » ، وقد يكون الحال في ذاك اليوم أسوأ ما يكون ، فهل ينتظر مني أن أقول له إنه حال كالقطران . معنى هذا أني استوقفته ، فهو مضطر بعد ذلك أن يسألني تحليل هذا القطران ، أن يسألني تفصيل ما أجملت ، وأنا مضطر إذا هو سأل إلى أن أجيب وأفيض . وأنا أقول على غضاضة ، وهو يسمع في الأكثر على غضاضة ، ثم يفارقني وهو يلعن الصباح الذي جره إلى هذا الصديق الثقيل الذي أريد منه كلمة واحدة ولو كاذبة ، فأعطي قصة طويلة مملة صادقة .

قال صاحبي متحاشيا : لا عذر عن الكذب أبدا . ولك يا عزيزي في الجواب مهرب ومهارب . [illegible] إذا سألك كيف الحال ، قل له « نحمد الله » .

قالت السيدة الأخرى : تعني أن [illegible] « طيب » أو « بالحمد لله » ، بدل أن يجيب بأن « الحال طيب » أو بأن « الحال كالقطران » . وإذن يتواضع الناس على أن « الحمد لله » هو « الحال المقطرن » ، وإذن لا رحنا ولا جئنا . إني لا أرى أن تقاس أمانة المرأة أو أمانة الرجل بما يضطره الأدب إلى قوله ، أو تضطره المجاملة إلى إتيانه ، وإنما أرى أن تقاس بما يفعل المرء في مواقف الإغراء .

فأنت يا عزيزي قل لي ، لو خرجت في الصباح فوجدت في الطريق محفظة نقود ، وفتحتها ، فوجدت فيها مائة جنيه عدا ، أو حتى خمسين ...

قال صاحبي مجيبا مقاطعا : لا والله ولو خمسة ...

قلت : لنلك ولو خمسة قروش .

قال صاحبي : إن الأمانة كالأشياء لها ثمن ، وأنا أربأ بأمانتي أن تباع بخمسة قروش .

قلت : وتبيعها بقرش يا صاحبي . قل لي : إذا أنت بلغت بالترام غايتك ، ولم تكن دفعت أجرة الترام — وأزيد ، إغلاء في أمانتك ، فأصف الترام بأنه كان مزدحما ، وأن الكمساري كان في الطرف الآخر من القطر — فهل ترتفع أمانتك إلى أن تنادي الكمساري من آخر القطر لتدفع له الأجر .

قال صاحبي : إن في هذا تأخير القطار . وما صواب عمل تكسب منه الشركة مليمات ، ويضيع فيه على الثلاث من الراكبين خمسة دقائق ثمينة من أعمارهم .

قلت بعد أن ضحكنا : الواقع أني لم أحسن امتحان صديقي بهذا المثل . فالإغراء لا شك كبير ، والأمانة حظها قليل ، عندما تتعلق الأمانة بشخص معنوي كشركة ...

قالت السيدة الأولى : أو حكومة .

قالت السيدة الثانية : أو بالجمرك . حضرنا من أوروبا [illegible] وجئنا من الخارج ببعض الملابس [illegible] بالطابع جديدة ، وقد حققت عليها [illegible] من زوجي إلا أن يعترها ، وأخرجها من مظهر الجدة ، ولبس بعضها ، كل هذا تفاديا من ضريبة لم تبلغ إلا جنيهات غير كثيرة . وزوجي مع هذا جواد محمود بالكثير . ولكن لعله « الجمرك » فحسب ، فبين « الجمرك » و « المسافر » خصومة في الدم قديمة .

قال صاحبي : وأنت يا سيدتي ، ألم تلبسي الجديد عند دخول الجمرك .

قالت السيدة وهي تبتسم : أي والله ، ودخلت بهذا القرط اللامع ، وقد دفعنا فيه في بلجيكا ثلاثمائة جنيه ... ولم نعد هذا نقصا في أمانة ، بعد أن رأينا فيما حولنا في الجمرك ما رأينا .

قلت : على أن هناك من المواقف ما لا يمكن المرء فيها إلا أن يكون أمينا ، حتى صاحبي هذا .

قال صاحبي متحديا : أمثال ذلك يا عزيزي ؟

قلت : هب أنك دخلت مخازن شيكوريل ، واشتريت ما اشتريت ، ثم دفعت الثمن ، وانتظرت الباقى ، فأعطته إياك الصراف ، وأعطاك فيه نصف جنيه فوق ما استحققت ، فهل ترد هذا الزائد ؟

قال صاحبي : أما هذه فنعم ، لاسيما إذا شفع لها جمالها .

قلت : وإن لم يشفع .

قال : وإن لم يشفع .

وهنا كان اقترب منا رجل من رجال الأعمال ، صديق ، فلما اطلع على ما نحن فيه ، رأت صاحبتنا الأولى أن تجر رجله فابتدرته .

السيدة : وأنت ياسعادة البك ، نريد أن نمتحن مقدار الأمانة عندك ، فهل لك في جواب سؤال .

رجل الأعمال : نعم ، ورقفا ؟

السيدة : قالت الجريدة بالأمس أنك تبرعت لمبرة ٠٠ عانة جنيه . فهب أن المبرة أرسلت لك رجلا يحمل صندوقاً مغلقاً لتضع في فتحته ما تشاء ، دون أن يراك أو يراه أحد ، فكم كنت تدفع ؟

رجل الأعمال : والله هذا سؤال لم يخطر على بالى أبداً ، وهو يحتاج إلى تفكير .

صاحبي : وسؤال ثان يملأ الفراغ ما بين السؤال الأول وجوابه . إذا جاءك بحكم منصبك الذى تشغله من شركتك خبر تستطيع أن تستغله لخير نفسك ، دون إضرار بشركتك ، فهل تفعل ؟ أجب سريعاً ، واصدق .

رجل الأعمال : أعوذ بالله من الشياطين . أنتم زمرة خطرة .

ودعته زوجته من أقصى الدار للرواح ، فتنفس الصعداء .

(تنفسنا) .

أحمد زكى

على هامش النقد العربي :

الرواية الأدبية في الأغاني

لعل أهم ظاهرة تقابل من يتصفح كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني أن الأخبار التي يسوقها عن الشعراء والمغنين تُشفع دائماً بسند كما تشفع روايات الحديث ، حتى ليقع في ظن من يقرأ فيه لأول مرة أنه بصدد كتاب من كتب الحديث ؛ إذ يرى الأخبار تبدأ على هذا النمط « حدثنا أو أخبرنا » ، ثم يتلو ذلك أسماء من حملوا الخبر ، فإن كان له روايتان فهو يسردهما حتى يتوثق الخبر على نحو ما يصنع أصحاب الحديث بأحاديثهم ، فإن الخبر أو الحديث إذا جاء من جهتين أو جهات بصورة واحدة ، كان ذلك مرجحاً لصدقه وخاصة إذا كان طويلاً ؛ فإن الاتفاق على ما حدث فيه من وقائع يجعل من البعيد أن يكون موضوعاً أو مصنوعاً ما دام الرواة المختلفون قد اتفقوا على هذه الوقائع وما يتصل بها من جزئيات وتفاصيل .

وقد خطا أبو الفرج خطوة أخرى ، هو وضع على الرواية الأدبية كل ما وضعه المحدثون على رواياتهم الدينية من علل ومراصد ، فإذا كانوا قد تعقبوا رجال السند بالتعديل والتجريح ، فكذلك يصنع أبو الفرج صنيعهم برواة الأخبار الأدبية . وقد ألقى الشك على كثير من الرواة للأحداث الأدبية وخاصة ابن خرداذبه لأنه كان قليل التحصيل لما يقوله ويضمنه كتبه ، فكان يرفض روايته إذا تعارضت مع رواية غيره ، كما كان يرفض كثيراً رواية ابن الكلبي فإنه متهم في رأيه ، إذ روى كثيراً من الأخبار الموضوعة التي يتضح فيها التوليد .

كان أبو الفرج يجرح ابن خرداذبه وابن الكلبي من رواة الأخبار ، كما كان يجرح طائفة من رواة الأشعار ؛ فهو يذكر أن أبا عمرو بن العلاء نحل الأعشى بيته المعروف :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت
من الحوادث إلا الشيب والصلعا

غير أنه يعود فيقول إن يحيى بن معين وغيره وثقوه ، وكأنه رأى أن هذا الصنيع من أبي عمرو كان شيئاً عارضاً لا يحكم على روايته به حكماً عاماً . لم يكن أبو الفرج يتهم أبا عمرو ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن ينص على خلل حدث في روايته . وهو إذا لم يكن قد اتهم أبا عمرو ، فإنه اتهم عالمين آخرين من مشاهير الرواة وهما خلف الأحمر ، وحماد الراوية ، فقد شككك طويلاً فيما يرويانه . أما خلف فقد حمله بعض سيرته من الانتحال بلسانه إذ كان يقول : « كنت آخذ من حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب وأعطيه المنحول ، فيقبل ذلك مني ويدخله في أشعارها ، وكان فيه حمق وغفلة » ، وأما حماد فقد كان — في رأيه — أكثر إفساداً للشعر القديم من خلف ، إذ عرف بكثرة الوضع على ألسنة العرب حتى أسقط المهدي روايته . وقد كان المفضل الضبي — وهو من الثقات — يقول فيه : « قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده ، فلا يصلح أبداً ، فقيل له : وكيف ذلك أيخطئ في روايته أم يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك ؟ » .

وأبو الفرج كما يرصد رواة الأخبار والأشعار ، فيجرحهم ويعدلهم ، كذلك يرصد الأخبار والأشعار نفسها ، فكثيراً ما تقع أعيننا في كتابه على مثل : « روى ذلك الثقات » ، أو : « لم يدون ذلك أحد من الثقات » ؛ أو يقول : « رواه من لا يوثق به » ، أو يقول : « هو من شاذ الروايات » ، أو يقول : « أحسب هذا الخبر مصنوعاً » ، أو يقول : « هو خبر مختلط » ، أو يقول : « هو خبر موضوع أو مصنوع » ، على حين يوثق الأخبار الصحيحة فيقول : « إن هذا الخبر أثبت » ، أو يقول : « إنه متواتر من عدة طرق » .

والحق أن أبا الفرج تثبت كثيراً فيما يقص أثناء كتابه من روايات وأخبار، فقد كانت غايته منذ السطور الأولى في أغانيه أن لا يروى أخباراً موضوعة ولا مصنوعة، إذ هي كما يقول في المقدمة — بأن تكون أخباره ورواياته «منتخلة من غرر الأخبار منتقاة من عيونها ومأخوذة من مظانها ومنقولة عن أهل الخبرة بها». فغايته منذ الخطوة الأولى أن يحقق أخباره، وأن يأتي بهـا من مصادرها الصحيحة. غير أنه لم يلبث طويلا حتى أحس بما تسرب إلى كتابه من مواد موضوعة أو مصنوعة، فرجع يعتذر عما وقع فيه من خطأ لم يتعمده إذ ضللته بعض الأسانيد أو بعض الكتب، وقد عبر عن ذلك تعبيراً واضحاً إذ يقول: «وإنمـا نذكر ما وقع إلينا عن رواته فما وقع من غلط فوجدناه أو وقفنا على صحته أثبتناه، وأبطلنا ما فرط منا غيره، وما لم يجر هذا المجرى فلا ينبغي لقارئ هذا الكتاب أن يلزمنا لوم خطأ لم نتعمده ولا اخترعناه، وإنما حكيناه عن رواته واجتهدنا في الإصابة».

والمسألة كانت معقدة فيما يظهر، [illegible] الأحداث والأخبار الأدبية يدخلها الشك ويضعف الثقة بها، كأخبار مجنون ليلى التي رواها وأحداثه، فهل يروى مثل هذه الأخبار والأحداث أولا يرويها؟ رأى أبو الفرج أن يرويها حتى يطرف قراءه بتلك الطرائف النادرة، وقد أشبث بهـا بعض المعاصرين، فظن الظنون بروايات أبي الفرج وقيمتها التـاريخية، وكأنه لم يقرأ بقية الأخبار، وما يقوله أبو الفرج من أنه يرويها «متبرئاً من العهدة فيها مشترطاً ذلك حتى لا يعاب».

وإن من يتابع أبا الفرج في كتابه ليؤمن إيماناً شديداً بأنه تعب تعباً مرهقاً في تحقيق رواياته، والتثبت من أخباره، إذ كان يكثر من الوقوف عند الرواة، كما كان يكثر من الوقوف عند المتون والنصوص نفسها، فهو يتوثق من ظاهر الأخبار كما يتوثق من داخلها، إذ نراه يعرض الأشعار على دواوينها كما يعرض الحوادث على التاريخ ليتبين هل هي صحيحة أو زائفة. وانظر إليه يقول عقب شعر لداود بن سلم: «وقد كنا وجدنا هذا الشعر في رواية علي ابن يحيي عن إسحق منسوباً إلى الرقاشي، وطلبناه في أشعار الرقاشين جميعاً فلم نجده، وكنا نظنه من شاذ الروايات حتى وقع إلينا في شعر داود بن سلم». ويروى شعراً للأعشى ثم يشك فيه فيراجع ديوانه على رواياته، فلا يجده فيها فيراجع شعر كل أعشى، وما زال يبحث حتى يهديه البحث أن الشعر ليس للأعشى، وإنما هو لابن المولى.

وليس من شك في أن هذا تحرٍّ شـديد، وهو كما يتحرى في نصوص الشعر فيعرضها على الدواوين برواياتها المختلفة حتى يتحقق من صحتها، نراه كذلك يتحرى في الأخبار فيعرضها على وقائع التاريخ حتى تتضح له الحقيقة المستورة. فمن ذلك أنه روى خبراً لدحمان مع الرشيد، ثم عاد فشك فيه فرجع إلى التاريخ يتساءل: هل أدرك دحمان خلافة الرشيد أو لم يدركها؟ وسرعان ما تبينت له الحقيقة فقال: «هكذا أخبرنا ابن المرزبان بهذا الخبر، وأظنه غلطاً لأن دحمان لم يدرك خلافة الرشيد». ثم هو يبحث الخبر في تفاصيله، فإن اشتمل على شعر ثبت أنه متأخر في وجوده عن [illegible] رفضه جملة على نحو ما صنع بحادثة تنسب إلى الوليد بن يزيد؛ فقد ذكر من رواها أن الوليد قال فيها:

من راقب الناس مات غمّاً وفاز باللـــذة الجسورُ

وقد حقق أبو الفرج هذا البيت فوجده لسلم الخاسر، حينئذ رفض الحادثة كلها وقال: إنها موضوعة لأن سلما لم يدرك زمن الوليد.

والحق أن أبا الفرج سعى جهده في تحقيق رواياته الأدبية في أغانيه، إذ وضع عليها كثيراً من العلل والمراصد، وهي علل ومراصد لا تقف عند النقد الخارجي للروايات من حيث السند ورجاله، بل تمتد إلى النقد الداخلي فيها من حيث النصوص وما يتفق منهـا مع الوقائع والأحداث الصحيحة وما لا يتفق. ونحن لا نرتاب في أن هذا التحقيق الواسع، وما ينطوي فيه من علل ومراصد، هو الذي يصعد بكتاب الأغاني إلى الذروة بين أهم المصادر العربية؛ إذ نراه غنياً غنى وافراً بالوثائق والمستندات الصحيحة التي تفسر للباحثين تاريخ العرب وحضارتهم تفسيراً وافياً.

شوقي ضيف

ســـيرة عنترة (١)

رأينا في سيرة سيف بن ذي يزن عرضا جميلا للنزاع الذي قام بين الساميين والحاميين ، وبين العرب الجنوبيين والشماليين ؛ كما رأينا أيضا كيف أن بلاد العرب كانت إلى جانب القارة الافريقية مسرحا هاما لتلك الحروب المتواصلة ، والتي كانت جاهلية حينا وإسلامية حينا آخر ، والتي انتهت بانتصار الساميين في الجزيرة ، وتعادل الكفتين في افريقية . وعلمنا من حوادث هذه السيرة أيضا كيف بسط اليمنيون سلطانهم على بعض الأصقاع العربية الشمالية وقربوا بين العقليتين الجنوبية والشمالية ، ومهدوا لعملية التزاوج التي حدثت بين الثقافتين العربيتين : القحطانية والعدنانية في الجاهلية ؛ كما ساهموا بنصيب وافر في خلق اللغة العربية الأدبية التي سجل فيها العرب شعرهم الجاهلي ونثرهم غير الإسلامي ، واتخذها الوحي لسانه لتبليغ رسالته . وقلنا إن النقوش التي عثر عليها في بلاد العرب السامية والمعلومات التي جاءتنا عن طريق رجال التاريخ وأصحاب السير تؤيد هذا . واليوم نعرض لسيرة أخرى من أهم السير العربية ، أعنى سيرة عنترة بن شداد التي تعبر بحق عن البادية الصحراء . فشخصية بطلها مازالت حية بيننا ، وما زال لفظ « عنتر » المثل الذي يضرب للشجاع ، كما اشتق الشعب منه كثيراً من المفردات التي تتصل بهذا المعنى عن قرب أو بعد . فالشخص القوى يدعى (بشعنتر) ، والحمل الثقيل الذي لا يقوى على حمله إلا من أوتي قوة عنتر هو (حمل متعنتر) ، ولباس النساء الذي يبرز ثدى المرأة ويقويه يسمى (عنترى) ، وأكبر مقبرة عرفتها أسيوط القديمة هي (اصطبل عنتر) . شخصية عنترة إذاً من الشخصيات التي تتغلغل في صميم الحياة العربية ، وهي الشخصية التي تتمثل فيها الرابطة السامية الحامية أجل تمثيل . فنحن هنا لا نرى نزاعا بين هذين الفرعين ، بل نلمس صفاء ومودة وسلاما ؛ فأم عنترة (زبيبة) حامية ، وأبوه سامي ، ويفخر بطل القصة بنسبه هذا ويقول :

بشطره فتى من خير عبس
أبوه ، وأمه من آل حام
عجوز من بني حام بن نوح
كأن جبينها حجر المقام

وهذه السيرة ، التي تشغل بضع آلاف من الصفحات المتوسطة الحجم ، تتحدث عن محمد بن هشام وجهينة اليماني وأبي عبيدة والأصمعي وسعيد بن مالك وغيرهم أصحاب أسمائهم كرواة لها ، والتي حفظ لنا التاريخ منها روايات بينها شيء يسير من الفروق ونسبت إلى الأقطار الحجازية والمصرية والشامية والعراقية ، سجل حافل لحوادث وقعت في الجزيرة العربية والعالم الإسلامي في الفترة الممتدة بين القرنين السادس والحادي عشر الميلاديين . ففي نجد قلب الجزيرة سكنت في منتصف القرن السادس الميلادي بطون من قيس عيلان ، كما نزل في المنطقة الواقعة بين مكة والمدينة والطائف وجبال طيء بنو سليم وهوازن ، وشرق هوازن نجد بني غطفان الذين حل من أفخاذهم بنو بغيض بن عبس وذبيان . وكانت منازلهم الأولى الشربة الواقعة بين النقرة ومكة . وفي ذلك الوقت الذي تتحدث فيه السيرة كان زهير بن جذيمة قد بسط سلطانه على غطفان ، وما كاد يستقر له الأمر حتى نجد الغارات تتلو الغارات بين العدنانيين والقحطانيين ، وفي إحداها سبى العبسيون كثيرين من بني جديلة وقطانهم ، وجواريهم وعبيدهم وعددا كبيرا من جمالهم التي كانت ترعاها أمة حبشية تدعى (زبيبة) وهي أم بطل السيرة . ثم بعد أن ينتهي الحديث عن العدنانيين والقحطانيين نجد السيرة تنتقل بنا إلى أرض العراق إلى بلاد الحيرة حيث يدور قتال بين عنترة والنعمان بن المنذر ؛ وذلك لأن الفارس العبسي يريد مهر عبلة وهو ألف من النوق العصافير التي لا توجد إلا في العراق . وهنا نقرأ وصفاً جميلا لبلاد العراق والعراقيين

(١) اعتمدت هنا على الطبعة البيروتية التي ظهرت ١٨٩٣ و ١٨٩٦ و ١٨٩٨ و ١٨٩٩ و ١٩٠٠ و ١٩٠١ .

والعلاقات السياسية التي كانت تربطهم بالفرس . وكما أن السيرة وصلت بين نجد والعراق تعبر عبلة إذا بها هنا توقع عنترة في الأسر ليتخذ المؤلف من ذلك قنطرة يعبر عليها إلى إيران ، ومن ثمّ ينتقل بنا إلى الدولة البيزنطية ويبسط لنا السياسة الفارسية تجاه الدولة الرومانية الشرقية ، وهو في عرضه هذا لا ينسى العرب وموقفهم من هذا النزاع القائم بين كسرى وقيصر ، وهذه الخصومة التي اهتم بها القرآن الكريم وأشار إليها في سورة الروم . وفي الصحيفة الثانية والأربعين بعد المائة نرى الراوي يحدثنا عن الحرب التي قامت بين ملك الحيرة المنذر ملك العرب عبدة الأحجار وكسرى ملك الفرس عبدة النار ، وينتصر العرب بفضل عنترة الذي سجل بطولته في قصيدته المشهورة التي مطلعها :

سلي يا ابنة العبسي رمحي وصارمي
وما فعــلا في يوم حرب الأعاجم

لكن المنذر يعلم أن الفرس سيعاودون الكرة ، وأدرك هو أن سلامته وسلامة بلاده تتطلب منه أن يكون جبهة قوية ضد العجم ، أعني لا بد من تعاون العرب واتحادهم في سبيل الوقوف في وجه العدو الخارجي . وهنا نرى السيرة تحدثنا عن الدولة العربية حديثا لا يقل طرافة عن أحاديث اليوم . ففي الصحيفة الثامنة والأربعين بعد المائة نرى المنذر يخاطب عنترة ويقول : ولكن يا ولدي من الرأي أن أكتب إلى سائر القبائل ، وأجمع العرب من الأحياء والمناهل ، وأتأهب لحرب الملك كسرى فإنه لا بد أن يعود إلينا ويسطو بعساكره علينا ، وأول ما أرسل إلى قومك بني عبس وعدنان ، وفزارة وذبيان ، وسائر بني غطفان ، ولا أزال إلى أن أقيم دولة العرب ، وأذل عباد النار واللهب . . . : لكن بينا المنذر يعمل لجمع شمل العرب إذ بعمرو بن نفيلة يظهر على المسرح كوزير المنذر ويعرض عليه خير التوسط بينه وبين كسرى لإزالة أسباب النزاع ، ثم تقفز السيرة إلى القرن الحادي عشر الميلادي حيث الحروب الصليبية وتحدثنا عن بطريق جبار وفارس من كبار الفرسان يدعى (بغرموت) الذي هو (بوهيمند Bohemund) والذي هزم سائر فرسان إيران

ولم ينقذ كسرى منه إلا البطل العبسي عنترة . وبعد حفلات الوداع والتكريم نراه يعود إلى عبلة ومعه المهر والكثير من الهدايا ؛ لكن عمه مالك يرفض زواجه بها لأن السيرة تلح في خلق خصوم لعنترة يشاطرونه حب عبلة والهيام بها ، وعنترة يكافح ضدهم بإخلاصه للعبسيين حيناً وتنحيه عنهم وقت اللقاء حيناً آخر ، وفي ثنايا هذا النزاع بين الفارس وقبيلته نقرأ وصفاً لمعركة نشبت بين بني عامر تحت إمرة خالد بن جعفر والعبسيين بزعامة زهير بن جذيمة الذي قتل في هذه المعركة وبها سيف ابنه ورقاء عندما هوى به على خالد يريد قتله وإنقاذ والده[1] .

ثم تعرض السيرة للغسانيين وتحدث عنهم وعن النصرانية ، وتصل بينهم وبين نصارى نجران ، ثم تصف زواج عبلة بعنترة وتنتهز هذه الفرصة وتذكر لنا خطب العبسيين ومنهم العدناني ، ومنهم القحطاني . وبعد أن تفرغ من ذلك تواصل سرد أعمال عنترة فتخلع عليه ثوبا إسلاميا وتنسب إليه حرب النبي صلعم ليهود خيبر ، ثم تنتقل به من بقعة إلى أخرى حتى نرى عنترة في بلاط قيصر الذي وهبه جارية تدعى مريم والتي وضعت لعنترة ابنه (جوفران) والذي هو في الواقع أحد فرسان الحروب الصليبية المسمى (جود فراي God frey) (أوائل القرن الحادي عشر) وتختم السيرة بالحديث عن الفتوحات الإسلامية ، وعن مصر وشمال أفريقية والأندلس .

والآن بعد هذا العرض نوجه إلى أنفسنا السؤال الآتي : ماهي حقيقة هذه السيرة وأين ومتى ألفت؟ ليس من العسير الإجابة على هذا السؤال ؛ فالقارىء المثقف يستطيع أن يقرأها دون كبير عناء ، وأن يخرج منها بأنها عرض وعرض موفق للقبائل العربية وعاداتها وتقاليدها وحروبها في تلك الفترة التي سبقت الإسلام أو مهدت لظهوره . فهنا نرى العدنانية تنتصر على القحطانية بل وتخالف السنن والأوضاع المعروفة عند العرب من قبل وتلحق بنسبها

(١) وإلى هذه الحادثة أشار الفرزدق معرضا بأخوال سليمان ابن عبد الملك :

إن يك سيف خان أو قدر أتى ... وتأخير نفس حتفها غير شاهد
فسيف بني عبس وقد ضربوا به ... نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد

لعب القدر

— ٢ —

افريدريك شيلر

ملخص ما تقدم :

[كان الوزروس فون . ج . فتى طموحا ، متخرج الصالح ، أنيس المحضر ، واسع الاطلاع ، فاستخدمه أمير فى حاشيته أميرة صقلية ، فاتخذه سميره ونديمه ، فلم يلبث أن استحوذ على الأمير ، فبات الكلمة كلها ، والطريق إلى الأمير عن طريقه . وكان الأمير فى مثل سن صفيه متفقا وإياه فى الميول والمشارب لولا أن الشيخ يشد الطعام ، والأمير يحب الاتكال على الطعام . فكان أن تفرغ الوزروس لشئون الدولة شيئا فشيئا ، وأن خفف من غشيان مجالس الأمير . ولم يكن مناص فى أن يحل غيره فى هذه المنازل محله ، فاختار الأمير نبيلا إيطاليا يدعى مارتنجو ، جعل كل همه أن ينال الحظوة لدى الأمير فى غفلة الوزير ، فلما تمكن منه ، فكر فى الإيقاع بالوزير ومس اليد التى أسعفت إليه الجميل . وقد تم له ذلك ، وسقط ألوزروس من حالق ، وجرد من ألقابه ورتبه على ... الكبة الوزير ساكنا إذ كان ... الزمان ... المترجم] .

وسيق من الساحة إلى مركبة انطلقت به وسط شوارع المدينة فكنت ترى النوافذ مفتحة ، والطرقات حافلة بالطغمة يتصايحون من خلف الموكب : هذا ساخر وذاك شامت ، وآخرون آسفون أسفا شديدا على نفس الأبى من السخر والشماتة .

وألقى ألوزروس نفسه فى العراء ، ثم فى طريق مفض إلى المحكمة العليا التى كابد أمامها صنوف العذاب من خشية الموت . ثم اقتيد فى طريق مأهول إلى حيث قدر له أن يكون : إلى السجن . وقضى ، بين أن سيق من ساحة العرض وبين السجن ، اثنتى عشرة ساعة حافلة بألوان الهول لم يذق فيها طعاما ولا شرابا ؛ فتداعت بنيته القوية ، وأخرج من المركبة مغشيا عليه ليُزج به فى جُب يشع فى جوانب القلعة حيث عاوده الرشد . فكان أول ما أخذ بصره فى حياته الجديدة حائط السجن الرهيب ، ثم أجال نظره فى المكان فوقع على رغيف ضئيل وجرة من الماء ، وحزمة من القش لفراشه .

عنترة ابن الأمة الحبشية وتزوجه عبلة بنت مالك أحد سادة بنى عبس فتمحى بذلك الفوارق الجنسية وتحطم الحواجز القائمة بين أفراد القبيلة الواحدة .

لئن يعيبوا سواد قد كسانى وجاروا من عناد فى ملامى
فإن بياض فعلى والمساعى وقلبى أشد من الرواسى
وما أسود بلون الجلد يوما ولونى مثل لون المسك نام
ولكن بالشجاعة والكلام

وغير هذه المبادىء الجنسية التى تعترف بها السيرة ويقرها الإسلام نجد فيها الشيء الكثير عن عادات العرب وأخلاقهم فى الحرب والسلم كما نعلم شيئا عن تقسيم الغنائم وحظ الحر والعبد منها ، ونقرأ بعض صيغ للقسم تدل على شيء كثير من الاعتزاز بالجنس العربى والخلق العربى كقولهم : (وذمة العرب) التى استعمل الإسلام عوضا عنها (ذمة الله) . وإلى جانب كل هذه المعلومات نجد القارىء مئات من القصائد المنسوبة لعنترة وغيره من الشعراء والشواعر ، وكذلك بعض المقطوعات الخاصة بالندب ، والمعلقات ، وحتى قصيدة الأعشى التى مطلعها :

ودع هريرة إن الركب مرتحل
وهل تطيق وداعا أيها الرجل

وغير الشعر نجد مناظرة لغوية بين عنترة وامرىء القيس نعرف من خلالها كثيرا من أسماء السيف والرمح والدروع والخيل والنوق والخمرة والحيات .

أما وطن السيرة فهو مصر بدليل التعبيرات المصرية . فنحن نقرأ فيها مثل (مرحبا بسلامتك) و (يا خوى الحمد لله) و (الحمد الآن) و (إكراما للعين تكرم ألف عين) إلى جانب ذكر مصر وبعض مدنها . عرفنا الآن موضوعات هذه السيرة ووطنها ، أما عصر تأليفها كما هى بين أيدينا اليوم فيرجح أنه كان فى أواخر القرن الحادى عشر مع الإشارة إلى أن القصاص كثيرا ما غيروا فيها حذفا وإضافة كما يتضح لنا ذلك عند قراءة الفصول الخاصة بالحروب الصليبية .

فؤاد حسنين

ولبث على هذه الحال حتى اليوم التالى فإذا كوة فى أعلى الجب تفتح ، وعقد منها يد بسلة تتدلى إليه بزاد كزاد الأمس . ولأول مرة ، بعد هذا التحول المخيف فى حظه ، ينزع منه الألم والحنين بضعة أسئلة : كيف أتى إلى هنا ؟ وماذا اقترف ؟ لكن أحدا فوق لم يحر جوابا وانسحبت اليدان اللتان أدلتا إليه الزاد وأغلقت الكوة .

وأحصى فى هذا المكان اللعين تسعين وأربعمائة يوم أدليت إليه بعددها أرغفة لا غناء فيها ، من الظهيرة للظهيرة ، وعلى وتيرة واحدة ؛ لا يرى وجه آدمى ، ولا يسمع صوته ، ولا يستخلص شيئا من هذا المصير المرعب عن مستقبل أو ماض ، ولا يخلص نفسه من الشك ، ولا يحييها شعاع من نور ، ولا تنعشها نسمة نقية ؛ بعيدا عن الكون ، محروما من عطف الناس .

وشىء آخر طفح به كيل شقائه واكتشفه فى أوائل أيام اعتقاله . وذلك أنه يعرف هذا المكان . فهو نفسه الذى أمر ببنائه منذ بضعة أشهر ليسجن فيه [illegible] عرضته سوء طالعه لغضبه . وقد [illegible] بشخصه ليوافق بناءه ، ويحتث عماله [illegible] القلعة ، ويتحكم فى هذا الجب ضحية الأمس ومدى انتقامه لتكمل آلامه . وقد خالط شعوره بشقائه قسوته على نفسه واحتقاره إياها ، والألم الذى لا تعرف القلوب المتكبرة أمر منه ، وهو أن يكون المرء تحت رحمة عدو لم يرحمه .

لكن عدوه بالأمس كان رجلا شريفا مستقيما لا يعرف الدناءة فى الانتقام . وقد آلم قلبه الرحيم أن يقسو على سجينه تنفيذا للتعليمات التى كان أمينا فى تنفيذها شأن الجندى القديم . ولود أن يخفف عنه العذاب لكنه لم يستطع له سوى الأسف والرثاء .

وكان للقلعة واعظ قسيس تناهى إليه خبر السجين متأخرا ، وعلى متن الإشاعات ، فصمم أن يهون عليه . وكان قسا مبجلا ، يؤمن بأن وظيفته الرعوية لا تخدم بأنبل من التخفيف عن رجل تعس قدم كل تخفيف .

وكان يعلم أن حاكم القلعة لا يملك أمر إدخاله عليه فسافر إلى حاضرة الأمير ، وجثا أمامه على ركبته ، وناشده الرحمة بالسجين الذى يمضى محروما من إحسان الدين للتسامح مع أشد المجرمين ، ويذهب قانطا من رحمة الله .

وطلب القس من الأمير أن يأذن له فى الدخول على السجين الذى هو من رعيته بحق الاعتراف والمسئول هو عن روحه أمام الله . فأجاب الأمير رجاءه ، وإذن له فى إدخال السرور على قلبه بزيارته ، وكان غضبه عليه قد نفس بشىء ما .

كان أول محيا آدمى طالع ألوزوس التعس فى الأشهر الستة عشر التى قضاها فى السجن إلى ذلك الحين وجه مسعفه . وقد كان الصديق الوحيد الذى عاش له فى هذه الدنيا سببا لشقائه ، وقد عجز جاهه عن أن عده بصديق . [illegible] الزيارة التى أداها له القس كانت وكأنها من ملك كريم . ولست أحاول أن أصف مشاعره . لكنه جعل من ذلك اليوم [illegible] إذا خنقه البكاء ، يترفق فى البكاء لأنه ألق فى [illegible]

[illegible] القس الذعر حين دخل هذا الجب الذى جعل للقتل ، وقتمت عيناه من الذى فيه — فزحف إليه من أحد الأركان شىء مهول يلقى الرعب فى القلوب ، وكأنه زحف من مأوى وحش لا مسكن إنسان . هيكل عظمى شاحب اللون كرمز الموت ، قد زايل وجهه كل ما يدل على الحياة ، واحتفر فيه الأسى واليأس تجاعيد بعيدة الغور . وقد نمت لحيته وطالت أظافره بفعل الزمن والإهمال طولا فظيعا ، وبليت ثيابه من طول الاستعمال بلى ساحقا ، وونىء الهواء من حوله من وفرة الأقذار .

هكذا وجد القسيس أثير الحظ وحليفه فى سالف الزمان ؛ فثار لمنظره ثائره وهرول إلى حاكم القلعة يستعطفه للتعس المسكين ويستنديه منة أخرى ليس من دونها نفع المنة الأولى .

فلما اعتذر له الحاكم بتعليماته ، قرر السفر إلى مقر الأمير ليسأله العفو عن السجين . وقد قال له إنه لن يقرب

سجينه بشئ مقدس مالم يرد إليه شبهه بالآدميين فأجابه الأمير إلى ما طلب وبات السجين من ذلك اليوم في عداد الأحياء .

قضى ألوزوس في تلك القلعة عدداً من السنين في حال أخف وطأة من حاله السابقة وأرحم به كثيراً ، بعد إذ أفل نجم المحظوظ الجديد ، وتعاقب على مكانه كثيرون غيره . وكان هؤلاء أكرم نفساً من سلفهم ، وليس ما يثأرون له من سجينهم . وأخيراً حل يوم الخلاص بعد عشرة أعوام — لكنه لم يحاكم ولم يبرأ ، بل تلقى حريته من يد سيده منة ومنحة ، وفرض عليه أن يغادر البلاد إلى غير رجعة .

وهنا ينقطع حبل الأخبار التي تلقيتها من أفواه الناس وأنشأت منها تاريخ ألوزوس فون . ج . وأجدني مضطراً إلى أن أتخطى من الزمن عشرين عاماً جاء ألوزوس في خلالها حياته الجديدة الخدمة في [illegible] أجنبية [illegible] بلغ فيها القمة التي أسقط منها في [illegible] ثم تولى الزمن مصير التعساء ، الذي يحقق العدالة بخطاه الوئيدة ولكنه لا يغفلها — تولى أيضاً قضية ألوزوس . فقد ولت سنو اللهو وإشباع الشهوات من الأمير ، وأخذت الإنسانية تقرر حقها عليه حين ابيض شعره . فأحس الحنين إلى حبيب صباه وهو يمشي إلى القبر ، واستدعى المبعد إلى وطنه ليعوض الشيخ ما ألحق بالرجل . وقد كان ألوزوس عاوده الحنين متئداً رفيقاً ، لحين تلاقيا كان التلاقي مؤثراً ، والاستقبال حاراً خداعاً ، كأنما كان افتراقهما أمس .

وحدج الأمير وجه ألوزوس بنظرة فاحصة ، فإذا وجه يعرفه وكأنه لا يعرفه ، وخيل إليه أنه يحصي تجاعيده التي احتفرها بيده . وقد فتش في وجه الشيخ عن قسمات الشاب التي استبدت بحبه ، فلم يجد ما يبحث عنه . وتكلف كلاهما رفع الكلفة فاستشعرا مثل برود الثلج ؛ وظل القلبان يفصلهما إلى الأبد الخزى والخوف . والمنظر الذي يذكر الأمير بتسرعه لا يمكن أن يشعره راحة الضمير ، كما أن ألوزوس ما كان ليحب من نكبه وكان علة شقائه . لكنه تذكر الماضي هادئاً متعزياً كالحالم الذي يستشعر الراحة بعد التخلص من حلم ثقيل .

على أنه لم يمض طويل وقت حتى كان ألوزوس يتبوأ كل مراتبه السابقة ، وبذل الأمير أن يعوضه خير العوض من ماضيه كابتاً ميله عنه . لكنه أكان وسع الأمير أن يرد إلى صفيه السابق قلبه الذي أتلف فيه الإحساس بالمتعة ؟ أكان وسعه أن يرد عليه سنا الأمل أو أن يصطنع للشيخ هناء يعوضه ما سلبه إياه وهو رجل ؟

لقد ظل ألوزوس فون . ج تسع عشرة سنة أخرى ينعم بهذا الخريف البهيج في حياته ، فلم تستطع المصائب والسنون أن تطفئ فيه نار الشهوات ، ولا أن تكدر فيه صفو الروح الطروب . فكان في السبعين من عمره يستولي على [illegible] كتبت له وهو في العشرين . ومات أخيراً [illegible] قلعة [illegible] حيث يعتقل سجناء الدولة . وكان في أكثر الظن خليقاً أن يظهر نحوهم من الرحمة ما تعلم تقديره في نفسه ، لكنه كان قاسياً هوائياً في معاملتهم . وفي سورة غضب على أحد هؤلاء التعساء لقي الحتف الذي أرقده في نعشه في الثمانين .

محمود الدسوقى

أدب القاضي الفاضل

ولد عبد الرحيم بن علي بن الحسن اللخمي البيساني — الذي عرف فيما بعد بالقاضي الفاضل — في إقليم بيسان من أعمال فلسطين ، وكان أبوه قاضياً على هذا الإقليم حتى حدثت جفوة بينه وبين الوالي ، فصرفه هذا عن منصبه وصادر ثروته ، ففر القاضي وابنه إلى مصر ، وكان ذلك في أواخر العصر الفاطمي .

وفي مصر فكر الأب الشيخ في عمل يرتزق منه ابنه الشاب ، فاستخار الله وبعث به إلى ديوان الإنشاء ، وهناك التقى الشاب برئيس الديوان وكان اسمه (ابن الخلال) فسأله هذا : ما الذي أعددت لفن الكتابة ؟ قال الشاب : كتاب الله وديوان الحماسة : قال ابن الخلال : في هذا بلاغ . ثم أراد ابن الخلال أن يمتحن مقدرة الشاب الكتابية فطلب إليه أن ينثر له شيئاً من ديوان الحماسة ففعل الشاب ذلك واطلع الرئيس على إنشائه فأعجب به وأمره بملازمته .

ثم أتى صلاح الدين إلى مصر ، ووصل فيها إلى منصب الوزارة من يد العاضد الفاطمي ، واحتاج الوزير الجديد إلى كاتب من كتاب الديوان ، ففكر هؤلاء يومئذ في أن يبعثوا له بالقاضي الفاضل ، وكان قد ظهر تفوقه على زملائه ، فرأوا إبعاده عنهم وبعثوا به إلى صلاح الدين وقالوا لعل هذا الوزير يقتل كما قتل الذين وزروا للدولة من قبله فيقتل عبد الرحيم معه ونتخلص منه .

غير أن القدر الذي كتب الظفر لصلاح الدين قدّره على إزالة الدولة الفاطمية وسخره لإقامة الدعوة العباسية . ونظر التاريخ فإذا صلاح الدين سلطان على مصر ، وإذا كاتبه عبد الرحيم وزيره ومشيره وصنو لذلك العصر .

والحق أن الذين يعرفون شيئاً من أخبار الدولة التي أقامها عصر صلاح الدين ، يستطيعون أن يعرفوا كيف سلمت لكاتبه العظيم زعامات أربع ، لا نكاد نعرف أنها سلمت كلها لرجل مثله في عصر من عصور التاريخ المصري الإسلامي ، وهي الزعامة السياسية ، والزعامة الاجتماعية ، والزعامة العلمية ، والزعامة الأدبية . وبذلك أصبح الفاضل قطب الرحى من الحياة الأيوبية كلها ؛ حوله تدور هذه الحياة ، وبه تمضي دائماً في حركة تطحن بها الحوادث المحيطة بها ، أو تطحنها هذه الحوادث المحيطة بها .

فأما زعامة الفاضل السياسية فيكفي في تصورها قول صلاح الدين : « ما ملكت البلاد بسيوفكم ولا رماحكم ولكن بقلم القاضي الفاضل » .

وأما زعامة الفاضل الاجتماعية فيكفي في تصورها أن تعلم أن شعراء عصره مدحوه جميعاً بدون استثناء ، وكان قصارى أحدهم في حياته أن ينال شرف مدحه ومدح سلطانه . وإذا ذهبت تحصي الأشعار التي قيلت في مدح الفاضل وجدتها آلافاً من الأبيات موزعة على الشعراء توزيعاً يتفق ومقدار الصداقة التي بين الفاضل وبين كل شاعر من هؤلاء . وحسبي أن أحيل القارئ هنا إلى ديوان القاضي السعيد هبة الله بن سناء الملك ؛ ففيه من المدائح التي قيلت في الفاضل ما يربو على جميع المدائح التي نظمها الشاعر في غيره . وفي هذا ومثله ما ينهض دليلاً على عظم مكانة الفاضل الاجتماعية .

وأما زعامة الفاضل العلمية فتظهر من أنه كان هو القائم على تنفيذ هذه الخطة الذهبية ؛ وهي الخطة التي جاء بها صلاح الدين إلى الديار المصرية . وهي تتلخص في إنشاء المدارس العلمية التي تحارب بها الدولة الأيوبية عقائد الدولة الفاطمية . ولقد نجح السلطان ووزيره في تنفيذ هذه الخطة التي رسماها نجاحاً لا نعرف مثله . ثم لم يكتف الفاضل بذلك حتى كان يشرف بنفسه على سير الحركة العلمية كذلك . فكان يشجع العلماء على الإنتاج والتأليف ؛ وكثيراً ما كان يشير هؤلاء في صدور مؤلفاتهم إلى أنهم إنما وضعوها بوحي من الفاضل ومشورته ، بل بتشجيعه ومعونته ، فيكون في هذا وأمثاله إعلان عن عظمة الرجل العلمية ، وعن أنها لم تكن بأقل من عظمته في ميدان السياسة .

وإلى جانب هـذا وذاك كان القاضي الفاضل مجدوداً من حيث المادة . وذلك أنه كان يشتغل بالتجارة — وإن كانت تجارته هذه لم تستغرق جزءاً كبيراً من وقته ، لأن وقته أضيق من أن يتسع لهـا . غير أن العجيب أن هذا الرجل الذي كان سعيداً موفقاً في حياته السياسية ، كما كان سعيداً موفقاً في حياته الاجتماعية وحياته العلمية ، كان كذلك سعيداً موفقاً في حياته المادية . فقد أراد الله لهذا الرجل أن يكون وفير الحظ من المال ، يشترى بجزء منه بستاناً ، ويزرع فيه الفاكهة ألواناً ، وتباع الفاكهة باسمه في أسواق القاهرة ، فتدر عليه تجارة الفاكهة إدرارات هائلة ، وهذا كله عدا ما يكتسبه الرجل لنفسه من عمله بحكم مناصبه . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

أما عظمته الأدبية فهى بيت القصيد من هذا المقال . والغريب أن الناس نسوا أو كادوا [illegible] السياسية والاجتماعية ، ولكن [illegible] أذهانهم ، كأنما الأدب من بين [illegible] الذى يستأثر دونها بالخلود ، أو كأنما الإنسان نفسه لم يكن يهتدى إلى طريق أتى له من طريقى الشعر والكتابة ، فإذا اتصف بهما ضمنا له هذا الخلود . والحق أن الفاضل كان عظيما من نواح شتى ، أو كان كما يقول الفرنسيون في وصف الرجل الشهير : أشبه شيء بالمنشور الهندسى ذى الأضلاع الكثيرة ، إذا أضأته من داخله أضاءت لك جميع جوانبه .

(وبعد) فهل نحتاج دليلا على زعامة الفاضل الأدبية ونحن نعلم أنه صاحب طريقة فنية عرفت باسمه ، ومذهب كتابى أخذ به وكان له تأثير واسع على أجيال أدبية متعاقبة اصطنعت هـذا المذهب وطال اصطناعها له ، واعتصرت هذه الطريقة حتى تركتها لنا في النهاية قشورا جافة لا حظ لها من الماء ، ولا هى تصلح أن تكون لنا نوعا من الغذاء ؟ لقد وصف العماد الأصفهاني طريقة صاحبه وأستاذه القاضى الفاضل بقوله : « إنها كالشريعة المحمدية التى نسخت ما قبلها من الشرائع » .

ولسنا نعرف قولا هو أبلغ في مدح هذه الطريقة وشدة تعلق الناس بها في العصور الوسطى من هذا القول .

أم هل نحتاج دليلا على قدرة الفاضل الكتابية وابن خلكان — وهو أحد مؤرخى مصر في العصر الأيوبى — يقول على لسان أحد الفضلاء الثقات : « إن مسودات الرسائل التى كتبها الفاضل إذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد ، وهو مجيد في أكثرها ! » .

الحق لقد كان الفاضل أمة وحده في الكتابة والترسل وأن كانت طريقته في الكتابة قد أصبحت لا تلائم أذواق الكاتبين منا في العصر الحديث ؛ ولذلك أسباب كثيرة يتصل أكثرها بالفروق الواضحة بين نوع الحياة التى كان يحياها الناس في العصور الوسطى وبين نوع الحياة التى أصبحنا [illegible] هذه الأسباب كذلك باختلافنا [illegible] في الثقافة وفي التمدن والحضارة ، وفي غير ذلك من الأمور التى من شأنها أن تخفى عنا معالم الفن الفاضل ، أو من شأنها أن تدفع الكثيرين من الباحثين إلى الغض من هذا المذهب الفنى ، يفعلون ذلك ظلما وعدوانا وتجنيا وإسرافا منهم على الحق والتاريخ .

أما أنا فشديد الإيمان بعظمة هـذا الفن الفاضلى ، شديد الفتنة به أيضاً . أنظر إليه على أنه صورة من الصور الخالدة لاسم الأدب أو الفن ، والأدب عند كثيرين من الناس وعندى نوع من المتاع الروحى لا يقل في شأنه عما يستمتع به الناس أحيانا عند سماعهم الموسيقى بل عند استماعهم لها ، أو حين يرون اللوحات الفنية الجميلة ، بل عند ما يمارسونها : وتلك قضية أحب أن أحدث القراء عنها إن شاء الله تعالى في فرصة مقبلة .

عبد اللطيف حمزة

إى نعم: فى التأنى السلامة

كتبت كلمة للأخ الأديب الأستاذ (قاف) نقداً لخبر حكاه الأستاذ عباس العقاد فى بعض كتبه، ونقدت طريقته وطريق أمثاله فى السيرة النبوية والتاريخ الإسلامى بالإثبات والنفى، من غير دليل ولا حجة، ونشر الأستاذ (قاف) كلمى فى العدد ٢٦٤ من الثقافة (١٨ يناير سنة ١٩٤٤) وعلق عليها برأيه فيما نقدت. فثارت ثائرته، وكتب مقالا طويلا فى العدد ٥٥١ من الرسالة (٢٤ يناير سنة ١٩٤٤) يدعى فيه أن الحقد عليه هو دافعى إلى النقد، وأنى تتبعت كتبه التى نشرها فى العبقريات فلم أجد إلا هذه الغلطة الواحدة، وإن كان لا يسلم بأنها غلطة.

وأحب أن يعلم «الأستاذ عباس محمود العقاد» أن «أحمد محمد شاكر» لا يحمل فى قلبه ضغناً ولا حقداً على أحد من الناس، كائنا من كان، صغر أو كبر.

وإنما أنا رجل أكتب فى العلم، [illegible] لله وفى سبيل الله؛ ومهما يقل فلن يخرجنى عن خلقى وعما رسمت لنفسى من حدود.

وبعد: فسنعود إلى ما نحن بسبيله من البحث العلمى فى القصة التى روى، والشعر الذى نسب إلى عروة، وإلى المصدر الذى أشار إليه فى رده، لنعرف مبلغ ما فى قوله وروايته من قوة وضعف، ومن صحة وبطلان.

فقد روى الكاتب هذه القصة ثلاث مرات، فنحكيها عنه بلفظها أولاً، ثم نذكر المصدر الذى أشار إليه، ثم ما رأينا فى مصادر أخر.

قال فى كتاب «عبقرية الصديق» ص ٢٠٩ — ٢١٠ ما نصه بلفظه: «فمن ذلك أنه كان عليه السلام يصلح نعله فى يوم قائظ فتندى جبينه وتحدر العرق على خده، وهى تلحظه من قريب وكأن بها وجداً عليه؛ فسألها: ماذا دهاك؟ فقالت: لو رآك الشاعر لكنت المعنى بقوله يا رسول الله. فعاد يسألها: أى قوله؟ فأجابته: حين يقول:

فلو سمعوا فى مصر أوصاف خده
لما بذلوا فى سوم يوسف من نقد
لواحى زليخا لو رأين جبينه
لآثرن بالقطع القلوب على الأيدى

فقام النبى إليها يقبل ما بين عينيها، ويقول لها: سررتنى يا عائشة سرك الله».

وأعترف للأستاذ العقاد وللقارئين الكرام أنى قرأتها فى ذلك الكتاب عقيب صدوره، فلم ألق لنقدها بالاً، وإن وقع فى نفسى إذ ذاك أنها تشبه ما نقرأ من الأحاديث الموضوعة، مما يدركه عقل رجل اشتغل بعلوم الحديث أكثر من ثلاثين سنة، وصارت له فيها فطرة خاصة، وملكة ثابتة، يفقهها أهل العلم.

ثم رأيته أعادها بشكل آخر فى كتاب «الصديقة» ص ٥٢ — ٥٣ فقال: «وكانت تحفظ من شعر عروة ابن الزبير نفسه وتسوق الشاهد منه فى موقعه، كما قالت من [illegible] النبى عليه السلام يتندى عرقاً فى يوم قائظ وقد [illegible] لو رآك عروة لكنت المعنى بقوله ...» وذكر البيتين، ولكنه ذكر فى الأول كلمة «سوم» على الصواب بدل كلمة «سور» التى هى خطأ مطبعى واضح، وذكر فى البيت الثانى كلمة «لواحى» بدل «لواحى»، ولست أدرى أيهما فى روايته أصل وأيهما تحريف. ثم عاد إليها فى الكتاب نفسه ص ٧١ فقال: «وتقدم أنها رأته فى يوم قائظ وقد توهج خداه فقال تتمثل بكلام عروة بن الزبير...» وأعاد البيتين. فحين قرأت هذا مع ذكر عروة لفت نظرى الخطأ الواضح البديهى، إذ لا يجهل أحد ممن يعرف رواة الحديث أن عروة بن الزبير من التابعين وليس من الصحابة، فمن المحال عقلاً أن يكون له شعر فى حياة رسول الله تنشده إياه عائشة، إذ لم يكن وُجد بعد، سواء أصحت نسبة الشعر إليه أم بطلت. فبحثتُ وحققتُ ثم كتبتُ نقدى.

وأعترف للأستاذ العقاد مرة أخرى أنى لم أراجع «شرح الشمائل للعلامة محمد بن قاسم جسوس» حينذاك،

لأنى أسقطه من حسابى دائماً فى المراجعة ، وأعرف قيمته العلمية ، ولكنى راجعت فيما راجعت « شرح الشمائل » للعالم المحدث المحقق العلامة « مُلا على القارى » . .

ولرجوعى إلى هذا المصدر الذى طار به الأستاذ فرحاً قصة صغيرة : ففى يوم الجمعة ٢١ يناير سنة ١٩٤٤ زارنى الأخ محمد أفندى فؤاد عبد الباقى ، وفيما جرى بيننا من الحديث سألنى عن شروح « سنن الترمذى » فذكرت له ما حضرنى منها : شرح ابن سيد الناس الذى أتمه العراقى ، ولم يطبع ، وشرح القاضى أبى بكر بن العربى وقد طبع بمصر ، وشرح العلامة المباركفورى وقد طبع بالهند ، وهما عندى ومن مراجعى والحمد لله . ثم شرحى أنا على قسم منه ، وقد طبع منه جزآن يعرفهما الأخ محمد أفندى فؤاد ، فأعاد إلىّ القول أنه سئل عن شرح آخر معيّن اسمه « الجاسوس » ، فضحكت وفهمت ما يريد ، وأخبرته أنه لا يسمى « الجاسوس » وإنما هو « جَسُّوس » ، وأنه ليس شرحاً على « سنن الترمذى » ، وإنما هو شرح على « شمائل الترمذى » [illegible] الكتاب فوجدت النص الذى يشير [illegible] الأول ص ٣٩ ، وهو « وإنما يقصد [illegible]

فلو سمعوا فى مصر أوصاف خده
لما بذلوا فى سوم يوسف من نقد
وصحب زليخا لو رأين جبينه
لآثرن بالقطع الفؤاد على الأيدى »

وأين من هذا النص القصةُ الطويلة التى حكى الأستاذ فى كتابيه ؟ وأين ذكر عروة فيه ؟! فهنا جسّوس ينشد البيتين على رواية غير رواية الأستاذ ، وهو أمر هين ، ولكنه ينسبهما لعائشة نفسها — وإن كان لا يوثق بهذا الكتاب ولا بما ينقله — ثم هو لا يذكر شيئاً قبلهما ولا بعدهما مما قص الكاتب !

على أن هذا النص لا يفيد الكاتب شيئاً فى مصدر القصة التى حكى ، ولا فى نسبة الشعر إلى عروة ، ولا فى موضع احتجاجه بالقصة والشعر على شئ معين ، وهو أن عائشة « كانت تحفظ من شعر عروة بن الزبير نفسه وتسوق الشاهد منه فى موقفه » لأن ذكر البيتين فى مصدر منسوبين إلى عائشة نفسها ، نسبةً صحيحةً أو باطلة ، لا يكون أبداً حجة على أن الشعر لعروة ، وعلى أن عائشة كانت تسوق الشاهد منه فى موقفه ! ! ولا أدرى ماذا يسمى فى طرق البحث والنقد من يدعى قضية ثم إذا طولب بدليلها أتى بدليل ينفيها أو ينقضها ؟

ولكن الأمانة العلمية توجب علىّ أن أخطو بالكاتب خطوة أخرى فى سبيل البحث ، لعلها ترشده إلى ذكر المصدر الذى نقل منه ما نقل ، فأذكر له مصادر أخر لم يهتد إليها ، وإن كان ما سأذكر لا يؤيد دعواه ولا قصته . فقد نقل الحافظ السيوطى فى شرح شواهد المغنى ص ٨٢ — ٨٣ ما نصه .

« أخرج أبو نعيم فى الدلائل والخطيب وابن عساكر بسند حسن عن عائشة قالت : كنت قاعدة أغزل ، والنبى صلى الله عليه وسلم يخصف نعله ، فجعل جبينه يعرق ، وجعل عرقه يتولد نوراً ، فبُهِتُّ ، فقال : مالكِ بُهِتِّ ؟ قلت : جعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نوراً ، ولو رآك أبو كبير الهذلى لعلم أنك أحق بشعره حيث يقول :

ومبرَّأ من كلِّ غُبَّرِ حَيضةٍ
وفسادِ مرضعةٍ وداءٍ مُغْيِلِ
وإذا نظرتَ إلى أسِرَّةِ وجهه
برقتْ بروقَ العارضِ المتهلِّلِ »

وهذه الرواية نقلها البغدادى فى خزانة الأدب ج ٣ ص ٤٧٣ عن السيوطى ، وذكر قبل ذلك ص ٤٦٦ أن البيتين من أبيات لأبى كبير فى حماسة أبى تمام ، وفى الشعراء لابن قتيبة ، وأنها من قصيدة طويلة فى أشعار الهذليين .

وقد نقل بعض المؤلفين القصة أيضاً فاختصرها ولم يزد عليها ، فإن الاختصار إذا لم ينقض أصل المتن جائز ، وأما الزيادة فلا تجوز ، لأنها فى عرف المحدِّثين تكون من باب الوضع ، نقلها عماد الدين يحيى بن أبى بكر العامرى فى كتاب « بهجة المحافل » ج ٢ ص ١٨٦ بلفظ : « وقالت عائشة : بأبى وأمى أنت ، لو رآك الشاعر لعلم أنك أحق بقوله »

وذكر بيتي أبي كبير الهذلي على الصواب ؛ وكذلك فعل الشيخ حسين عبد الله باسلامة عضو مجلس الشورى بمكة ، فنقلها كما نقلها الماوردي مختصرة ، في كتاب « حياة سيد العرب » المطبوع بجدة سنة ١٣٥٣ ج ٤ ص ١٢٠٦ ، فأين هذه النصوص مما ذكر العقاد ؟

ولكن بقي بعد هذا كله شيء واحد ، هو أصل دعواه : أين موضع عروة بن الزبير ، وأين موضع شعر عروة من هذه النصوص ؟ هذه حلقة مفقودة ، على الأستاذ العقاد أن يبحث عنها ويقيدنا فيها .

وأما ادعاء الكاتب أنه يستبعد أن يكون عروة ولد سنة ٣٣ أو بعدها ، فهذا إفساد للتاريخ العربي ، وما هو بتحقيق ، فإنه إذا صح أن تاريخ ولادة عروة خطأ فليس ذلك بنافعه في موضوعه ، فلئن كان الخطأ في سنة أو في عشر سنين ، كان عروة مولوداً بعد وفاة رسول الله ، بل لو كان الخطأ في عشرين سنة لكان عروة طفلاً في حياة النبي ولم يكن شاعراً « تحفظ عائشة من شعره وتسوق الشاهد منه في موقعه » في حياة رسول الله [illegible]

وقد نص أئمة الحديث ومؤرخو الرجال في النقد على [illegible] تراجمهم وحصر ما أمكنهم حصره وذكروا [illegible] صحبة من العلم الغزير ، لا يضيعه ولا ينقضه عصبة كاتب . ولم يذكر أحد منهم قط ، أن عروة كان صحابياً ، وإنما ذكروه في التابعين . بل إن الحافظ ابن حجر لم يذكره في الإصابة في الأطفال الذين ولدوا في حياة النبي عليه السلام .

وبعد فإن القول يطول لو شئنا نقض كل ما رد به الكاتب ، وليس في طول الجدال فائدة علمية ، فمن ذلك أعرضنا عنه .

وإن لنا الكلمة في تفنيد حديث عائشة عن سنها حين زوجها رسول الله ، أو تخطئته إياها في معرفة سنها إذ ذاك . ولعلنا نجد فرصة مواتية في نقض ما ذهب إليه ، إحقاقاً للحق ، ودفعاً عن الأحاديث الصحيحة ، إن شاء الله .

أحمد محمد شاكر

(الثقافة) هذا آخر ما ننشره في هذا الموضوع عرضاً للآراء المختلفة ليتجلى الحق .

صحيفة الفكر :

١ — سندباد عصرى
و
٢ — سندباد قديم

الدكتور حسين فوزى

— ١ —

فى قرارة كل نفس إنسانية « سندباد » أو شعرة من « السندباد » ، ولو لم يطوف مثله فى بحار الأرض ويتعرض فى طوافه لشتى الأخطار !

فمن هو « السندباد البحرى » فى حقيقته ؟ إنه المخلوق الإنسانى الذى يناديه المجهول فيلبيه ، ويجذبه الخطر فيستجيب إليه ؛ ويتعرض للأهوال الشداد الجسام فى كل رحلة من رحلاته ، ثم يبلغ مأمنه بعد الإياس ، ويسترد ثروته بعد الفقدان . ولكن المجهول يعود فيناديه والخطر يجذبه إليه ، فما يلبث أن يودع الأمن ، ويستصغر الثروة ، ويعود إلى المجازفة من جديد ؛ وراء ذلك المجهول المحجوب ، وخلف هذا الخطر المخوف !

ذلك هو السندباد كما تصوره « ألف ليلة وليلة » ، فأية نفس إنسانية ليس فيها من هذا « السندباد » شعرة أو شعرات ؟ ! من منا لم يجذبه المجهول مرة أو مرات ، ولم يستهوه الخطر لحظة أو لحظات ، ولم يستعذب « المعرفة » ولو كلفته التضحية والتضحيات ؟ كل منا فيه من هذا « السندباد » شعرة ظاهرة أو كامنة ؛ ولكنها هى التى تربط الإنسانية بالعالم الأرفع ، عالم « المعرفة » فى عليين .

وكم من « سندباد » ظاهر قاد كولمبس ، وفاسكودى جاما ، وماجلان ، وابن بطوطة ، وسواهم ؛ وكم من « سندباد » خفى قاد العلماء والمخترعين إلى آلاتهم ومعاملهم ، وقاد الفلاسفة والفنانين إلى مغامراتهم الفكرية والوجدانية ، وقاد المتصوفة والعباد إلى شطحاتهم وسبحاتهم ؟

إنه « سندباد » واحد تتعدد مظاهره ، وتتوزعه فى شتى النفوس ، أو « سندبادات » كثيرة موزعة فى هذه النفوس ، التى تركب الخطر وتستلذ المجازفة ، ومن تلق بوعيها كله أو بعضه إلى ذلك النداء السحرى ، نداء المجهول الذى يهتف بها من هناك ...

***

والدكتور « حسين فوزى » هو « سندبادنا » اليوم ! وهو رجل ندب لرحلة علمية فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ضمن بعثة عالمية لدراسة أحياء البحر والمحيط ، وقد طوف — مع البعثة — على باخرة مصرية طيلة تسعة أشهر ، فى البحر والبر ، فى الجزر والقارة ، وزار معابد الهند وسيلان وسواها من الجزر المنثورة فى المحيط .

ولحسن الحظ كان « الإنسان » فى هذا الرجل أكبر من الرجل الذى ندب لعمل رسمى ، وأكبر من العالم الذى ندب لمهمة علمية . كان « فنانا » فلم يمنع هذه الأسفار أن تنتهى إلى الدراسة العلمية البحتة ؛ بل أدى واجبه ثم بقيت فى نفسه بقية لما هو أكبر من هذه الدراسة وأبقى ؛ وعادت البعثة وملء وطابها تجاربها ومعلوماتها ودراساتها ؛ ثم عاد هو وملء وطابه الخاص ملاحظاته الإنسانية ، وانفعالاته الوجدانية ، واستجاباته العاطفية ، وتجاربه النفسية ، فأودع ذلك كله كتابه « سندباد عصرى » الذى نتحدث عنه اليوم .

يقع هذا الكتاب فى ٢٨٣ صفحة من القطع المتوسط ، مقسمة إلى أربعة أقسام « مبث . وصور . وحيد . ومشاعر » وتحت كل قسم من هذه الأقسام الأربعة فصول يجمعها العنوان .

وخلف جميع العنوانات والفصول يطالعك إنسان حى الوجدان ، متوفر الحس ، مفتوح الحواس ، ينظر ، وينفعل ، ويستجيب ، وتشترك ثقافته العلمية ، وقراءاته الأدبية ، وتجاربه الفنية ، فى تلوين ما ترى عينه من

مناظر ، وما يجيش فى نفسه من أحاسيس ، وما يصدر عنه من ملاحظات ! ولا يعوزك أن تلمح ريشة الفنان ، تسجل هذا كله فى بساطة ويسر ووضوح ، ولا تتكلف إلا فى النادر ، وبلغة سهلة صحيحة إلا فى مواضع قليلة لم يكن من العسير تحرى الدقة فيها ، وكان من الخير تحريها .

وليس من الضرورى أن توافق « السندباد المصرى » فى آرائه وأحاسيسه واتجاهاته لتؤدى له هذه الشهادة ، فنحن — على العكس — نخالفه فى أساس اتجاهه الذى يعلن عنه « إهداؤه » فى صدر الكتاب حين يقول :

« درجت على حب الغرب ، والإعجاب بحضارة الغرب ، وقضيت أهم أدوار التكوين من عمرى فى أوربا ، فتمكنت أواصر حبى ، وتقوت دعائم إعجابى ، فلما ذهبت إلى الشرق ، عدت إلى بلادى وقد استحال الحب والإعجاب إيماناً بكل ما هو غربى » .

نحن نخالفه فى هذا « الإيمان بكل ما هو غربى » وفى زرايته على الشرق وعاداته وأساطيره وديانته (الإسلامية والمسيحية) ، ومتناقض منه هذا الإعجاب ولكنا — مع هذا — يعجبنا فيه الإنسان الحى الوجدان ، والفنان المفتوح العين والحس والضمير ، وإنه لحسبك أن تجد « الإنسان » فى أى مخلوق ، ثم ليكن له بعد ذلك ما يكون من الآراء والاتجاهات ، فستجد عنده مادة إنسانية تستحق العناية والاهتمام . وهذا هو المطلوب — قبل كل شىء — فى كتاب يقرؤه الناس فى حدود « الأدب الخفيف » الذى يمثله هذا الكتاب .

وأنت تخالف « السندباد المصرى » أو توافقه فى اتجاهاته العامة ، ولكنك ستعجب به ، وهو يحدثك عن « مشمشة » قطة السفينة ، حديث الإنسان العارف بقدر الحياة فيشعرك بالتعاطف الإنسانى بينه وبينها ، هذه « المشمشة » التى « عادت إلى مصر ضمن من عادوا إليها بعد أن طوفت معهم تسعة أشهر فى طول المحيط الهندى وعرضه ، ونشرت صورتها على صفحات الجرائد ، ولم تزدها الشهرة خيلاء على خيلاء ، ولم تزدها رؤية الأمصار زهوة أو خبرة ، بل ولم تمكنها هذه الحياة من انتقاء عريس صالح بين هررة سيلان أو قطط زنجبار أو سنانير الهند . عادت إلى مسقط رأسها فى السويس عذراء ذهبية الشعر أوفت على سن الزواج ، وقد غادرتها طفلة فى لون الحناء » !

أو حين يقف بك فى هذه السفينة نفسها بعد انتهاء الرحلة وتفرق الركب وخواء المكان ، فيحدثك حديث الشاعر الذى يخلع الحياة على الجماد وعلى الذكريات فتنبض وتتحرك وتستجيب .

« لقد عاد كل منهم إلى وطنه وعمله ، وعادت سفينتنا فى نفوسهم ذكرى يزيدها الزمن ائتلاقاً ، ولكنهم تركونى هنا وحدى ، كالشاعر البدوى ، أبكى فوق الدمن ، وأستبكى الرائح والغادى ! . تركونى أحوس خلال هذه الغمرات والمحامل ، فتتألب على أشباح ذكراهم حتى لأخال نفسى شبحاً بين الأشباح .

« إيه أيتها السفينة ! إيه أيها الجواد الأدهم !

« هل قدر لنا أن ننوء بحمل الذكرى ؟ أو أننا سوف نعود سوياً إلى خوض البحار النائية ، حيث الموج اصطخاب وهدير ، وللإعصار صرير وصفير ؟ » .

أو حين يتحدث عن « حياة البحار » فينقلك نقلا إلى جو هذه الحياة ، أو حين يقف بك على « مثوى الزعيم » فى سيشل فتحس بضربات القلب المصرى ، وخفقات القلب الإنسانى تلتقيان فى خلال الكلمات . أو حين يتحدث عن « غادة ممباسا » فى فصل « لياليات » فتلتقى بالفنان الحى الذى يعبد الحياة فى أجمل أوضاعها . . . فى جسم فتاة مكتمل جميل ، تزينه الأنوثة وتجمله الحياء ، ويرفعه الاحترام . أو حين تقف أمام تمثال « بوذا » فيبدو لك الفكر الحر الذى يستروح فى « البوذية » شذا الحرية والبساطة والسماحة ، بعد ما كاد يختنق تحت كابوس القيود والتعقيد والتشدد فى « الهندوسية » التى تخيفه

وتفرعه وتطلقه ساخطا على الشرق كله فى بعض الأحيان !

* * *

وهنا يصل بنا الحديث إلى مفرق الطريق بيننا وبين « السندباد » !

أنا لا أعرف المؤلف ، ولم أره ، ولم أشهد صورته كذلك ، ولكنى أستطيع أن أستشف من كتابه أنه فنان شديد الحساسية عصبى المزاج . ومن عادة هذا الصنف من الناس أن تستغرقه اللحظة الحاضرة ، وأن تستغرقه المشاهد المثيرة ، وأن يفزع من الضغط والكبت ، وأن تمتد ثورته من طرف الشىء إلى بقية الأطراف .

هذا الفنان الشديد الحساسية العصبى المزاج « قضى أهم أدوار التكوين من عمره فى أوربا » فبهرته الأضواء ، وأعجبته الحيوية ، وراقه النشاط ، ولذ له الانطلاق . ثم « ذهب إلى الشرق » ، وإلى الهند بوجه خاص ، فالتقى هناك بالوجه الثانى للدرهم ! الزهد والصوفية ، والتصوف والسكون ، والكبت والحرمان ، و[illegible] ... وهاله كل ذلك ، لولا أن الحياة الاجتماعية بدت فى أشنع الصور ، وأحط الدركات : العرى والجوع والقذارة وظلم الطبقات : النجاسة للمنبوذين ، والتقديس للبراهمة ... إلى آخر المناسك والتقاليد والأوضاع ... وبعد ذلك كله الخوف الدينى الموغل فى المعتقدات حول تناسخ الأرواح ، وما تلقاه فى أطوار التناسخ من العذاب للتكفير عن السيئات ...

لم يكن هناك مفر بعد هذا كله — لمثل صاحبنا السندباد — من السخط على هذا الشرق الناعس ، والهلع من أشباح الخوف الكامنة فى هذه المعتقدات . ومن « الإيمان بكل ما هو غربى » كما يقول فى إهداء الكتاب .

فإذا شاهد راقصة فى كراتشى « ترقص رقصاً توقيعيا لا فن فيه » صاح : « جليلة هى هذا الشرق الطويل المريض الفارغ . هى تلك الشعوب التى ما زالت تفكر وتحس بإحساس القرون الوسطى ، وتصر على حسبان ما فى حضارتها البائدة لا ملكا للتاريخ والمتاحف بل أداة للحياة حتى فى القرن العشرين » !

وإذا شاهد صخرة « ماها بالى بورام » وقد نحت فيها فنان شرقى تشخيصاً لأسطورة ، نهر الكنج المقدس وقد أقبلت الآدمى والحيوانات من كل فج تشهد ميلاد النبع المقدس فى صوفية وخشوع جعل يقول :

« لو أن نحاتا إغريقيا أعمل أزميله فى هذه الصخرة تحت شمس « أتيكا » ! ويحى لقد أفسدت الصورة التى طبعتها فى ذاكرتى « ماها بالى بورام » وأفقدتها كل معانيها فى نفسى ، فلم يكن الإغريقى ليصور نبعاً مقدساً ، بل كان فى الأغلب ممثلا « أرفيوس » فى الشق الأوسط وهو يوقع على قيثاره المعجب وحوله الإنس والجن خاشعة ... الخ » .

وإذا شاهد هندياً يمثل الروح الهندية المتسامحة التى تنبو من الصراع على الحقوق الحاجة إلى الزهد فى أعراض الدنيا والانتهاء إلى عبادة الروح الأعظم قال : « أدركت [illegible] فى بعض الحركات الروحية حين تدخل ميدان السياسة العملية » .

وإذا سمع زميله الإنجليزى يقول عن « النيرفانا » أى الفناء فى الروح الأعظم — وهو الغاية التى يطمح إليها الهندى من وراء حرمانه وآلامه : « دعنا من هذا فلا قبل لى بهذا الهجص وتلك الشعوذة ياعم حسن » لم يجد فى نفسه أية حاسة للرد على الكلام . وهكذا وهكذا مما قد يبالغ فيه فيصل إلى حد الزراية والسخط الشديدين على الروح الشرقية بوجه عام .

ومهما افترضنا للسندباد من الأعذار فى قسوة الأوضاع الاجتماعية والمظاهر البائسة التى شاهدها فى الهند فقد كنا نرجو أن يكون أوسع أفقاً وأكثر عطفاً وأعمق اتصالاً بروح الشرق الكامنة وراء هذه المظاهر والأوضاع ، الروح الصوفية المتسامحة المشرقة بنور الإيمان .

ونحن لا ندعو إلى الروحانية السلبية ، ولكننا ندعو فقط إلى فهمها والعطف عليها وتقديرها من الوجهة

الإنسانية . فالغربي معذور حين يغلق حسه وفهمه دون روح الشرق الأصيلة ، أما الشرق فلا عذر له في هذا الإغلاق .

إنه يقول عن لوحة الكنيج المقدس : « لم يكن الإغريقي ليصور نبعاً مقدساً ... الخ » أجل ! وهذا هو مفرق الطريق بين الشرق والغرب . في الشرق قداسة تمت إلى القوة العظمى المجهولة ، وفي الغرب جمال يمت إلى الشهود الحاضر المحسوس . وليس لي أن أفضل هذا أو ذاك ، فكلاهما جانب من جوانب النفس الإنسانية الكبيرة التي تهش لكليهما على السواء ، إن لم تؤثر في حسابها الروحي والفني جانب المجهول على جانب المشهود .

وهو يسخر بعقيدة « النيرفانا » كسخرية زميله الإنجليزي الذي يقول : ما كنت أحسب أن ديناً يعد بنعمة الفناء ! ووجه الخطأ هو اعتبار « النيرفانا » فناء ، إنها كذلك في نظر الغربي الذي يصارع الطبيعة ويعزل عنها ، أما الهندي الذي يحس بنفسه ذرة منسجمة مع الطبيعة ويضعها أمام روحه فيرى في فنائه في القوة العظمى حياة وبقاء وخلوداً . وعلينا أن نفهم هذا ونعطف عليه ولا نراه بعين الغربيين .

وهو يبدو في أرفع صورة في « سادهانا » لطاغور » فلنقف خشعاً أمام هذا السمو الإلهي ولو بعض لحظات ! ! !

وهكذا يجب أن نجاوز مظاهر الجيل وأوضاع الاجتماع ، لننفذ إلى قلب الشرق وإنا لواجدون فيه كثيراً من الكنوز الروحية التي تنقذنا من قسوة الحضارة الآلية التي تخنق أنفاس الإنسانية في هذا الزمان . الحضارة الآلية التي لا قلب لها ولا ضمير ، والتي تنسجم في أصولها مع روح الغرب كل الإنسجام .

أريد الدكتور أن أضرب له مثلا على سطحية الروحانية في نفوس الغربيين المعاصرين وضحولة القداسة في قلوبهم ؟ إنني إذن أدعوه ليعاود في كتابه نفسه قراءة صلاة الراهب الإنجليكاني بالبيئة ، هذه الصلاة التي سبقتها الكوكتيل ثم أعد الكوكتيل ليكون مكانا للصلاة حتى إذا انتهت عاد المصلون للكوكتيل ... مع ما أحيطت به الصلاة من رسميات ... فقد انقلبت كل شيء ، حتى الوجدانيات إلى رسميات !

وأخيراً فإنها مرة واحدة هي التي ارتفع فيها المؤلف إلى القمة في « شجرة البوذي المقدسة » وهو يقف أمام الزنجي عابد « البوذا » فيحترم عقيدته التي أحالته روحاً علوية وهو الزنجي الذي يقوم بعمل الحمار ... لقد كان « السندباد » « هنا » إنساناً كبيراً يستحق الإجلال .

* * *

ثم أكرر ما قلته من أن الاتفاق أو الاختلاف لا يغير شيئاً من الحكم على قيمة الكتاب ، وهو كتاب يضاف إلى المكتبة العربية في حفاوة واعتزاز في مقدمة الكتب الممتعة بلا جدال .

سيد قطب